عنترة بن شدّاد

٢

دار المعارف بمصر

عنترة بن شدّاد

٢

تأليف

حسن جوهر

محمد أحمد برانق

أمين أحمد العطّار

ملتزم الطبع والنشر

دار المعارف بمصر

١

سمع عمارة ورأى فى مجلس زهير ما لعنترة من مهابة ومكانة سامية فأيقن أن عبلة خرجت من يده ، ولهذا رجع إلى بيته ، حزيناً قلقاً ، وبعد تفكير عميق فى أمره أصر على أن يرى عبلة رأى العين ، فإن أعجبه حسنها استعان بالربيع أخيه على زواجه منها ، ولو كان السبيل إلى ذلك قتل عنترة ، وإن لم ترق فى عينيه انصرف عنها ، وخلى سبيلها تتزوج ممن تشاء ، ولكن كيف يحتال لرؤيتها ؟

لقد تنكر فى زى عبد من عبيد العرب وكمن فى جانب الطريق الذى تمر منه عبلة إلى المياه غادية رائحة ، هى وأترابها ، بحيث يراهن ولا يرينه ، وخرجت عبلة إلى الغدير فى صحبة من لداتها فألفاها هيفاء فاتنة الجمال ، ساحرة الخطا عذبة الحديث ، فالتهب فؤاده بحبها ، ورجع مشرد الذهن إلى داره ، لا يكاد يعرف موضعاً لقدمه ، وهناك قص على أخيه قصته ، وشكا بثه وحزنه ، فقال الربيع :

لقد نصحت إليك أن تترك أمر هذه الفتاة ، فإن تعلقك بها يجر عليك متاعب كثيرة ، فلم تستجب لنصحى ، وقد لمست بيدك ما يعترضك

من أهوال وخطورة ، والرأى عندى أن تتحدث إلى أبيها مرة أخرى ، فإن أجابك إلى ما تطلب كان هو الوسيلة إلى تحقيق رغبتك ، وإن اختار عنترة من دونك فلا سبيل لك إلا أن تدبر حيلةً تغتال بها عنترة على غير علم من أحد ، وبذلك تأمن شر العداء لبنى قراد ، وهم على ما تعلم من القوة والبأس الشديد .

فاطمأن عمارة إلى قول أخيه ، وظن أن أمر الفتاة أصبح فى يده ، ونسى أن المرء يفكر والقدر يدبر ، وقام إلى مخدعه وكأنه قد أيقن ببلوغ المراد .

* * *

وفى الصباح لبس عمارة أفخر ما عنده من الثياب ، وجلس فى دار ضيافته ، ودعا إليه مالكاً وابنه عمراً ، فلما حضرا وجلسا قال مالك :

إلى خير دعوتك أيها الأمير ؟ فقال :

دعوتك لأتبين رأيك فى زواج ابنتك ، بعد أن أعلن شداد أخوك أبوته لعنترة ، ولطخ أنساب الأماجد من العرب بهذا العمل الفاضح ، فربما سايرت أخاك فى عمله ، وشاركته فى جريمته ، فنفضت يدك منى ، ونقضت الميثاق الذى بينك وبينى ، واخترت عنترة لابنتك من دونى ، فقال عمرو أخو عبلة :

كيف نجنى على أنفسنا بأيدينا ، ونختار عنترة من دونك ؟ ! ذلك ما لا يكون . وقال مالك أبوها :

تمهل يا ولدى ولا تعجل ، ودعنى أفضى إليكم بما فى نفسى ، فقال عمارة :

وذلك ما دعوتكم إليه ، فقال مالك :

لقد تعلمون أن عنترة أبغض الناس إلىّ ، ولما حلت ضائقة القتال بنا ، وأُسرتْ عبلة ونساؤنا ، ولم نجد من يدافع عنا ويسترد نساءنا إلا عنترة الذى كان قد اعتزل القتال نزولاً على رأينا — ذهبنا إليه مستنصرين فأبى إلا أن نرد عليه حريته المسلوبة ، وعلى الرغم منا أعلن شداد حريته وبنوته ، ووعدته إن خلص ابنتى فهى له ، كما تعلمون كيف نصرنا وردّ الأعداء عنا وأرجع أسرانا ، وتعلمون ما له من المنزلة الرفيعة عند زهير وابنه مالك ، من أجل مواهبه وسيفه ، ومروءته وفضله ، وذلك جميعه جعل المسألة شائكة معقدة لا يحلها إلا تدبير حازم محكم ، أحقق به رغبتك ، دون أن أظهر بين العرب بمظهر الغدر وعدم الوفاء ؛ فقال عمارة :

أظنك تخشى زهيراً وجنوده ؟ فقال مالك :

وأخشى أن يقال : إنى تمردت عليه وخرجت من طاعته ؛ فقال عمارة :

تلك ابنتك ، والأمر فيها لك وحدك . فقال مالك :

ولكنها دخلت فى تقدير البارزين من القوم ، وجعلت مكافأة ملكية لمن حفظ كيان الدولة ، وانتقلت الولاية عليها من الفرد إلى الجماعة ومن الأب إلى الملك ؛ فقال عمارة :

وماذا عليك لو طلبتها منك فى مجلس زهير وقومه من دار ضيافته ؟ فقال :

لك ما تشاء ، والأمر حينئذ للمجلس .

* * *

وفى الغد جلس الملك فى دار ضيافته حسب عادته ، يحف به سادات قومه ، ومن بينهم عنترة الذى حظى بالجلوس على يمين الملك بين أبنائه ، يمتع المجلس بعذب حديثه ونادر طرفه ، ومعهم عمارة الوهاب الذى حضر لتنفيذ ما بيّت عزمه عليه، من طلب عبلة فى مجلس زهير .

وفى هدأة المجلس وسكونه التفت عمارة إلى مالك وسأله : ألست فى العرب سيداً كريماً ؟ فقال : بلى ! سيد كريم وابن سيد كريم ، فقال :

ألم تكن قد وعدتنى أن تزوجنى ابنتك عبلة ؟ فقال :

بلى ! فقال عمارة :

ولكنك تتثاقل فى الوفاء بما وعدت ؛ فقال :

لأنى حائر فى أمرى ، فقد وعدت عنترة ابن أخى أن أزوجه منها كما وعدتك ، فقال :

ولكنك وعدتنى طوع اختيارك ، ووعدت عنترة برغم أنفك ؛ فقال مالك :

لم يرغمنى على وعد عنترة خوفى منه ، أو دفع بلاء عنى ، ولكنى اشتريت بوعده حماية القوم وحماية الملك ، وإرجاع الأسرى من فتيات ونساء، ولم يكن لى من النفع والغناء فى ذلك، أكثر مما لك ولغيرنا، ولولاه لكنت أنا وأمثالك ونساؤنا ونساؤك أذلة فى يد الأعداء .

ثم ساد المجلس سكون طويل عميق ، فلا تكاد تسمع نفساً يتردد ، أو همساً يتصاعد ، وجميعهم بين محب لعنترة ، ومبغض إياه ، ذلك ينتظر إنصافه والحكم له، وهذا يرتقب النكاية به والحكم عليه ، وبعد فترة طويلة من هذا السكون العميق قال عنترة :

إن من العجب العجاب أن يلغى رجل عقله ، ويلبى داعى أثرته ، فيطلب ما ليس له ، إن عبلة لمن خلصها وفك رقبتها ، وألقى بنفسه فى التهلكة فأنقذ أهلها وقومها ، وليست تراثاً يملكه الوارث لزاماً ، وهو فى عقر داره نائم ، وضاجع وادع .

وكان أخوها عمرو لا تزال تأخذه خشية العار فابتدر عنترة وقال :

لو سيقَ لى ملكُ كسرى ما رضيت بزواج عنترة من أختى ، ولن أستطيع صبراً على عار نجره إلينا بأيدينا ، فقال الربيع :

ومن أرغمك على زواج أختك من هذا أو ذاك ؟ وقال شاس :

إنها أخته يختار لها من يشاء ؛ وقال أحد الجالسين ممن يبغض عنترة :
وإنه إن تنازل عن حقه فى ولايته على أخته ، فقد أضاع حقه وكرامته ؛ وقال آخر :

ولا يستوى سيد ومسود ، ولا الأحرار والعبيد ؛ فقال عنترة :

ولا يستوى الخبيث والطيب ولو أعجبك كثرة الخبيث ، فإذا رأى الملك عدلاً ونصفة، فليدعَ عمارة هذا التكبر الكاذب وليبارزنى ، وعبلة حينئذ لمن غلب، فإن أبى القوم بعد هذا إلا عناداً وإنكاراً لفضلى وجحوداً رحلت عنهم إلى حيث أتعبهم بنهب الأموال وسلب الأنفس ، ولن أترك لى عدواً يبرد جسمه نسيم الحياة .

وطبيعى أن يكون شداد أول من يتأثر ، فالتفت إلى أخيه مالك قائلاً :

إن عنترة منك بمنزلة ابنك ، لأنه ابن أخيك وشقيقك ، وإن حسدك إياه وحنقك عليه نشوز عن الفطرة وتمرد على الطبيعة ، وستضطرنا إلى أن نقابل هذا النشوز الآثم بنشوز غير آثم، لأنه غضبة منا للحق ، فإن رجع إليك غائب رشدك وزوجت ابنى من ابنتك رعيت حق الأخوة ، وأديت واجبها ، وإلا فقد زعزعت الأساس ، وعرضت نفسك لكل ضر وبأس ، فسأكون أنا وابنى يداً واحدة ، فراجع رأيك وعسى أن تعود إلى

صوابك ، وقال زخمة الجواد :

يا مالك ! لا تكن معول هدم لأسرتنا ، وإنك لن تجد شجاعاً مثل عنترة ، فلا عذر لك إن أعرضت عن ابن أخيك وابنك ، ورأى زهير فى وجه ابنه مالك رغبة فى الكلام فقال له :

وما رأيك يا مالك فيما سمعت ورأيت ؟ فقال :

الظلم والغدر باديان فى موقف مالك أبى عبلة من ابن أخيه عنترة ، فقد ارتمى على أقدامه وأوثق فى عهوده ،وقت أن كانت بنته فى يد أعدائه ، فلما حرر ابنته وبنى قراد من الأسر جحد نعمته ونقض عهده على نحو ما نرى ونسمع ، وتلك حال لا ينبغى السكوت عليها ، وأرى أن تكون عبلة لعنترة على الرغم من أعدائه وحاسديه ، فقال أحد المعجبين بعنترة :

لافض فوك يا مالك ، ولا زلت بين أيدينا نوراً يهدينا إلى سواء السبيل. وقال آخر :

والشيء من معدنه لا يستغرب ، فقد عهدنا فى بيته النصح والوفاء العظيم ؛ وقال آخر :

والأمر بعد هذا واضح، وليس له إلا ما رآه مالك ؛ والتفت آخر إلى أبى عبلة قائلاً :

الظلم ظلمات فى حياة الناس ، وكما كنت صغيراً فى رجائك

واستنصارك ، فكن عظيما فى وفائك ومكافأتك . فغضب أبو عبلة وقال : ما كنت صغيراً فى يوم من الأيام ، ولن أزوج ابنتى عنترة ولو جردتُ فى ذلك الحسام ؛ فقال زهير :

ألم تكن رجلا وقت الخوف والشدة وطلبك المعونة من عنترة ؟ فقال :

بلى ! وما كنت إلا رجلا أينما حللت ، فقال زهير :

وأنت الآن فى أمنك ورضائك أجدر بالرجولة والاعتصام بها ، وإن كنت تخشى غضب الربيع وعمارة ، فليهبا لك ابنتك ، وليقضيا على ما عسى أن يكون من فتنة قبل أن يستفحل أمرها ، ولعل الربيع قد أدرك ما نريد وما نبدى وما نعيد . فقال الربيع :

حرامٌ عبلة على عمارة ، ولن أدعو عنترة إلا كما أدعو سادات قومه .

فقال زهير :

وقد شكرنا لك جميل فعلك ؛ وأذن للمجلس فى الانصراف .

• • •

رجع عمارة إلى داره خائباً حزيناً فلما رأته أمه سألته عن حاله ، فقال :

إنى فى هم عظيم ، فألقت على الربيع نظرة تسأله بها عن حال أخيه ، فقال :

لقد تشبث ابنك بفتاة تجر علينا الأهوال ، ودون الوصول إليها هلاك الأنفس وخراب الديار ، فقالت :

لعلها عبلة فتاة عنترة ؟ ! فقال :

ما أصدق فراستك ! ! فقالت يا عمارة :

إن العاقل من قدر قبل أن يقطع ، وهذه فتاة لا ينبغى لأحد أن يكون له فيها مطمع ، ما دام عنترة لا يبغى عنها حولا ، فإن لم تتركْ له من أجل دفاعه عنا ، ومحافظته علينا ، ومعروفه فينا ، فلتترك له من أجل جرأته وشدة بأسه ، فهو شجاع لا يطمع فيه أحد ؛ فقال عمارة :

ومتى فارق النساء غلوهن فى الأمور ؟ ! لقد غلوت فى وصفه ، حتى أخطأتِ فى فهمه ، ونسيت الربيعَ وجنودَه وعمارَة وأنصارَه ، فانتفض الربيع وقال :

لا أكون الربيع بن زياد حتى أهلك عنترة بن شداد . وانفض المجلس والربيع مُصِرٌّ على قتله .

• • •

وكان للربيع صديق حميم من بنى عبس يسمى عروة بن الورد ، وكان فارساً جريئاً مغرماً بالأسفار ، فدعاه إليه فى داره وقص عليه أمر أخيه عمارة ، وما أصر هو عليه من قتله عنترة ، وطلب إليه أن يكون له فى ذلك نصيراً وعوناً ، فعظم فى نفس عروة أن يبلغَ عنترة من المنزلة والخوف منه ما بلغه ، وقال :

أمن رَعْى الغنم والجمال ، والاحتطاب بين التلال ، إلى أن يراجعكم

فى المقال ، ويخيفكم على هذه الحال ؟ ! فقال عمارة :

ولقد سماه زهير حامية عبس ، ودعاه ابن عمه من غير لبس ، فقال :

وهذا كثير ، وسأجعله بينكم لا يساوى شروى نقير ، فأمره علينا يسير .

فانتعش عمارة وقال :

ولك عندى إن قتلته مائة دينار ومائة ناقة ، فقال عروة :

لستُ خاملَ المروءة حتى آخذَ على معونتى لكم رِشوة ، وأنظرُونى إلى ما بعد الغد ، فلا منجاة له من يدى ، وإن ابتغى نفقاً فى الأرض أو سلماً فى السماء .

فأشرق وجه الأمل فى نفس عمارة ، ثم انصرف كل إلى شأنه .

٢

أصبحَ الصباح وأخذ زهير مجلسه بين سادات قومه وفرسانهم وعنترة من بينهم ، وطرقوا أبواب الحديث فى مذاهب مختلفة ، ورغب زهير أن يداعب عنترة ، فقال له :

أتحب عبلة ؟ فقال :

أحبها حب المرء لحياته ، وقد أسرنى أسراً لا أرجو له فكاكاً ، فأثنوا عليه ثناء جميلاً ، ثم أقبل عليه عمه وقد استقام رأيه ورجع إلى الحق ،

فاعتذر له عن موقفه وأكد له مواثيقه أن عبلة له دون سواه ، فقال مالك ابن زهير :

ليس لأحد بعد هذا أن يتقدم لخطبة عبلة ، وسأذهب إلى الربيع وأخيه فأخبرهما بذلك ، وأطلب إليهما أن يكفا عن طلب عبلة .

* * *

وفى الضحا كان مالك بن زهير فى دار عمارة ، فاستقبله بما يليق به من إكرام وتجلة ، وكان عمارة قد ربط جأشه ونشطت عزيمته بما وعده عروة من قتل عنترة ، فقال لمالك بعد تحيته والثناء عليه :

لقد كنت أود أن تكون عوناً لى على عنترة ، وتذكر فى ذلك قرابتى منك ومنزلتى بين قومك ! ! فقال مالك :

ورأيى أن عبلة لعنترة ، بر بالقرابة وحماية لك من عنترة وشره ؛ فقال عمارة :

أنسيتَ أنك فضلت عبداً أمه أمة على حرّ أمه سيدة؟! فقال مالك:

أنسيتَ أنت أن الأحرار والعبيد أمام الحق سواسية ؟ ! فقال عمارة :

ولكنى سمعت أوصاف عبلة فعشقتها ؛ فقال مالك :

ولكنه رأى بعينى رأسه ماسمعت فهو أكثر منك حبًّا ، وخير لك أن تكف عن طلبها ؛ فقال عمارة :

لا يزال الأمر فى قبضة الأيام ولا ندرى ما يكون ؛ فقال مالك :

لقد حذرتك ، وقد أعذر من أنذر . ثم نهض وتركه .

خشى عمرو بن مالك أن يكون أبوه قد تغير رأيه ، فرضى بعنترة زوجاً لأخته ، فقال لأبيه :

إن كنتَ قد أعرضت عن عمارة ورضيت لنفسك مصاهرة عنترة فإنى راحل إلى حيث لا ترى لى وجهاً ولا تسمع عنى خبراً ؛ فأجابه :

لا تذهب نفسك حسرات على ما سمعت فما تغير رأيى ، ولا مفر من السعى إلى اغتيال عنترة على يد غيرى . فاطمأن عمرو وذهب عنه قلقه ، وانفلت إلى عمارة فأتى إليه مادار من الحديث بينه وبين أبيه ، فابتسم عمارة وأسرّ إليه بحديث عروة بن الورد ووَعْده أن يقتل عنترة ، ففرح كلاهما وأيقنا فرجاً قريباً .

٣

فهم عنترة أن مسألته قد انتهت بنزول عمه مالك على حكم زهير وعقلاء قومه ، فاطمأن وصبر وشغل نفسه بالصيد والقنص ، منتظراً ذلك اليوم الموعود الذى ينفذ فيه عمه وعده ، وكانت عبلة من الخوف على عنترة فى يقظة مبصرة ، وصلة حساسة بأعدائه ، لتقف على ما يبيتون له من المكائد ، فلم تغادر صغيرة ولا كبيرة تقال أو تفعل فى غيبته حتى تفرغها

من فورها فى صدره ، ولهذا لم يكن سر عروة بن الورد خفياً على عنترة ، فسأل عنه عنترة فقيل إنه خرج للكسب والإغارة .

وكان لعروة بن الورد مائة فارس يتبعونه فى حله وترحاله كما يتبع المرء ظله ، فنزل بهم فى شعب الوادى ، وهو واد عميق ملتوى الطريق ، ضيق المسالك ، كثير المهالك ، فاختبأ هو وأنصاره فيه ، يرتقبون عنترة ويترصدون طلعته ، وقد أوصاهم أن يكونوا دائماً على أهبة القتال بعد أن يبرز إليه وحده ، وقال :

إن وجدتمونى ظافراً فدعونى أستل روحه ، ليكون لى بين العرب فخر اغتياله ، وإلا فأدركونى ولما أمزق ، وكونوا حيئذ على حذر عظيم ، ولا يغرنكم أن عنترة وحده فتجنحوا إلى التوانى والتواكل ، فقد سمعتم عنه فى الشدائد والمعارك ما حير الألباب ، وحرك فى النفوس كل دهشة وإعجاب .

° ° °

خرج عنترة وأخوه شيبوب إلى البرية ذلك اليوم الذى يترصده فيه عروة يبغيان الصيد والقنص ، ولم يكد يشرف على شعب الوادى وأخوه معه حتى رأى فارساً يقصده ويأتيه ، وكان فارع الطول مفتول العضل واسع العينين يشع منهما بريق ينم عن قوة ، وهو غارق فى دروع من حديد وعلى رأسه لأمته ، متنكر فى لباس لا يعرفه أحد فيه ، يحمله جواد قوى لا يبالى أين يوجهه راكبه ، وما كادا يلتقيان حتى ابتدره عنترة قائلاً :

من أنت أيها الفارس ؟ وما جاء بك ها هنا وحملك على لقائنا ؟ فلم ينطق ببنت شفة ، فقال عنترة :

عجباً لفارس يتصدى لعنترة ثم تخرسه رؤيته وقد كان فى مأمن من عدم لقائه ؛ فقال شيبوب :

اقتله وليكن من يكون ، فقال عنترة :

أنظرنى حتى أعرفه فقد يكون عروة بن الورد الذى غره الربيع وخدعه وأرسله إلى هذا الوادى ليلقى حتفه ، ويطوى صفحة حياته ، فخجل عروة من تنكره ومد يده فألقى اللثام عن وجهه ، وقال :

أنا عروة بن الورد، خرجت لملاقاتك ، ولأريح بنى زياد من شرورك بطعنة تفرق بين بدنك وروحك .

ثم ابتدأ بينهما القتال والمبارزة ، وكان عنترة كلما تمكن منه أطلقه حتى يذيقه الخبال .

وكان شيبوب قد ذهب إلى جوانب الوادى يتبين كميناً من الرجال فيه ، وما لبث أن عرفهم فأسرع إلى عنترة ونادى :

حذرك يا عنترة ، فمن خلفى رجال يقطر الموت من سيوفهم ورماحهم .

وما كاد عنترة يستمع لأخيه حتى مد يده إلى عروة واقتلعه من ظهر جواده وضرب به الأرض ضربة كادت تقضى عليه . فخف شيبوب إليه وأوثق كتاف يديه ، ثم طلب عنترة الرجال وهم فى سبيلهم إليه ، فجعلوا

يتساقطون بين يديه تساقط حبات الندى من أوراق الشجر ، وركب من أفزعته الشدة سبل الفرار ، ثم رجع عنترة وأخوه إلى الديار وقد أسرا عروة ابن الورد وكثيراً من أنصاره .

وكان مجلس فى دار الربيع بن زياد عُقِد اتفاقاً وصدفة ، ضمه هو وأخاه عمارة ، وشاس بن زهير ، ومالكاً والد عبلة ، وعمراً أخاها ،

وبينما هم ينتقلون بالحديث هنا وهناك قال الربيع فى ابتهاج ومسرة : اليوم يوم عنترة ، وعما قليل يطلع علينا عروة حاملاً نبأ قتله ، وأطلعهم على ما كان بينه وبين عروة ، فلمعت فى وجوه الحاضرين وضاءة الفرح ، وتعلقت آمالهم بتحقيق ما يحبون ، وقال بعضهم :

وإنى فى شك من تحقيق ما وعدكم به عروة ، فعنترة كالعقاب لا ينال ولو أحاطت به ألوف مؤلفة من الفرسان والرجال ، فقال الربيع :

وماذا علينا لو أوهمنا الحى أنا ذاهبون إلى المراعى، ثم ننفر إلى شعب الوادى ، لنرى مصير هذين الفارسين ، وربما كان فينا بعض العون لعروة على الفتك بعنترة ؟ ! فوافق جميعهم وخفوا إلى الوادى مسرعين .

وبينما هم فى منتصف طريقهم إلى الشعب إذ طلع عليهم فرسان على جيادهم يتسابقون هرباً ، ولا يلتفت أولهم إلى آخرهم فزعاً ورهباً . فسألهم شاس عما وراءهم وما دهاهم ، فقالوا : لا تعوق فرارنا ولا تمكن عنترة من اللحاق بنا وإلا أفنانا جميعاً ، وقصوا عليه ما جرى من عنترة لهم ، ولعروة

زعيمهم وقائدهم ، فأظلمت الدنيا فى وجه شاس ومن معه ، وخافوا أن يفتضح أمرهم ، ويظهر غدرهم وكيدهم ، فجعلوا يتلاومون وهم نادمون . فقال الربيع :

ما لنا مخلص الآن، إلا أن نذهب إلى عنترة ، ونتلطف فى القول معه، فهو ذو مروءة وكرم ، وعسى أن يطلق سراح عروة ومن معه ، ويلقى على هذا الحادث ستار الكتمان ، فقالوا :

ذلك خير ما يكون .

وساروا وهم يتشاورون فى تدبير حيلة ، تخلص عروة وصحبه ، وأخرى تقتل عنترة وتقضى عليه، ولكنّ القدر لهم بالمرصاد، فقد شغلهم عن عنترة ما أصابهم فى طريقهم .

وذلك أنهم وهم سائرون ، قابلهم فارس من بنى معن ، يسمى الهجام ابن جابر ، على رأس فرسان يبلغ عددهم ثلاثمائة ، وكان قادماً بهم إلى زهير ، يثأر لأبيه الذى قتله وهو يغزو المتغطرس .

وما كاد هذا الفارس يعرف أنهم من بنى عبس ، وفيهم شاس بن زهير ، حتى قبض عليهم ، وساقهم إلى دياره ، ليقتلهم هناك ، كما قتلوا أباه من قبل .

وبينما هو يسير بهم مأسورين ، إذ أقبل عليهم عنترة ، وهو راجع إلى الديار ، ومعه عروة ومن أسر من رجاله ، فقال الهجام :

من أنت ؟ وإلى من تنسب من العرب ؟ فعسى أن يكون لك من الحسب ، ما ينجيك من العطب . فقال عنترة :

وإن لم ينجنى ما تزعم من نسب وحسب ، نجانى سيفى ورمحى ، وهمتى وعزمى ، أنا عنترة بن شداد ، من بنى عبس . فقال :

وأنا الهجام بن فارس، وقد أوقعك سوء طالعك فى يدى، فلا مفر لك الآن من سوقك أسيراً إلى ديارى ، مع من أسرت من قومك — وأشار بسيفه إلى شاس ومن معه .

فأعجله عنترة بضربة أطاحت رأسه ، ثم انقض على صحبه ، فأعمل فيهم سيفه، وشيبوب أخوه يساعده ، حتى قتل من قتل، وهرب من هرب، وكشف الغمة عن شاس والربيع وعمارة ، ومالك وعمرو ابنه ، فأسرع إليهم ، وفك وثاقهم ، وحرر رقابهم ، ما عدا عمارة ، فقد انهال عليه ضرباً بالسوط ، حتى ضج له شاس وشفع فيه ، فقبل الشفاعة وأطلقه .

وخشى شاس ومن معه أن يعلم زهير وسادات العرب ما حل بهم من الهجام بن جابر ، وفضل عنترة عليهم وهم له كائدون ، فيكون ذلك لهم عاراً وسبة ، ولعنترة شرفاً ومروءة .

خشى شاس ومن معه ذلك، فتوسلوا إلى عنترة أن يمن عليهم بالكتمان، وألا يشعر بما جرى لهم إنسان ، فقال عنترة :

ذلك علينا يسير ، اذهبوا فأنتم الطلقاء ، ولا يذهب العرف بين الله والناس .

ودخل عنترة على زهير فى مجلسه ، والفرح بنصره باد على وجهه ، ومعه عروة والأسرى من أنصاره ، وكان شاس والربيع وسادات القوم جالسين .

اغتبط زهير بقدوم عنترة ، فأجلسه وأكرمه ، وسأله عن هؤلاء الأسرى ، ولما أخذ عنترة يسرد قصتهم ، جمد الربيع وصحبه فى أماكنهم ، وتعلقت أنفاسهم فى حلوقهم ، مخافة أن يذكر فى أثناء قصصه شيئاً عنهم ، ولكنه كان كريماً وفياً ، فأسر حادثتهم فى نفسه ، ولم يذكر عنها شيئاً .

أمر زهير أن يحضر عروة بين يديه ، وجعل يلومه ويعنفه ، إذ طاوع عمارة فى اغتيال نفس بريئة ، معروفة بالفضل والنبل والشجاعة ، شفاء لحقد فى الصدور .

وخشى الربيع أن يسأل زهير عما جرى لعمارة ، فيجيب عنترة بما يفضحه ، ويكشف عيبه ، فلجأ إلى المكر والدهاء ، وقام على عجل إلى عنترة ، وقبله بين عينيه ، وقال :

لا تسمع فى أبناء عمومتك وشاية ولا قولا ، وهذا أخى عمارة قد نفض يديه من طلب فتاتك ، من يوم أن طلب إليه الملك ذلك ، وإنى الآن

أشهد المجلس على أن أخى لا يذكرها ، ولئن جرى على لسانه ذكرها ، أطحت أنا بسيفى هذا رأسه ، وأسكنته قبره ، وأما عروة هذا فليس له عندك الآن إلا الغفران والصفح ، وكفى ما حل به وصحبه من النكال والهون.

فقال زهير :

لا ضير عليك يا عنترة أن تقبل شفاعة الربيع . فقال عنترة :

لحة المليك مطاعة ، عن رضاء وإجلال ومحبة .

٤

كان سرور شداد بابنه ، وسرور من يحبه من عشيرته وحيه ، بقدر ما أصاب الربيع وصحبه من الغيظ والحزن العظيمين ، وكان جديراً أن تُذهب حسناته ، ما فى صدور حاسديه من حقد وكراهية ، ولكنه الحسدُ عظم فى صدورهم داؤه ، فلم يعد ينفع فى البرء منه تلطف ولا صنيعة ، فدعا الربيع مالكاً وعمراً ابنه ، وجلس ثلاثتهم ومعهم عمارة ، يأتمرون فى داره ، لعلهم يجدون حيلة يقتلون بها عنترة .

واهتدى الربيع فيما يزعم إلى حيلة تقضى عليه ، إذ نصح إلى مالك بن قراد أن يقبل على عنترة ، ويبدى له وده ومحبته ، ويعلن سروره بمصاهرته ، على أن يُحضر المهر الذى يقترحه ، وسيكون فى إحضاره الموت المحقق له ؛

وذلك أن تطلب منه ألف ناقة من النوق العُصفورية ، التى لا يجدها إلا عند الملك المنذر بن ماء السماء ، وهو إن ذهب لإحضارها فلا مرد له ولا مرجع ، وحينئذ يزوج مالك ابنته من يشاء ، ويكون عذره واضحاً لدى زهير ومن يحبه من الأصدقاء ، فأجمعوا أمرهم على هذه الحيلة ، ووكلوا إلى مالك تنفيذها .

° ° °

أقبل مالك على ابن أخيه ، وأحكم تودده إليه، وإعجابه به ، وافتخاره بمصاهرته ، فكان يستقبله مساء كل يوم وهو عائد من الصيد استقبال الوالد الرحيم ، ويصحبه إلى داره ، كأنه أحد أبنائه ، فيأكلون ويسمرون ، ثم يذهب عنترة إلى دار أبيه ، حيث يقضى البقية الباقية من ليله .

تسع ليال دأباً ، وعنترة وعمه على هذه الحال ، حتى ذاع فى الحى أن أمر عبلة أصبح لعنترة ، وبدا له الجو هادئاً صافياً ، لا يلمح فيه شية من سحاب أو عاصفة .

وفى الليلة العاشرة، وعنترة فى مجلس عمه وأولاده كعادته ، قال له عمه: لقد أصبحت زوج عبلة الأوحد ، ونلت رضا الأقرب والأبعد ، ولم يبق إلا التحدث فى مهرها . فقال عنترة :

ما تريد يا عمى ؟ فقال :

أيرضيك أن تكون عبلة أقل لداتها مهراً ؟ فقال :

إن لم يفق مهرها كل فتاة عربية ، فلن أكون عنترة. ولن تكون عبلة زوج عنترة . فقال مالك :

ذلك ما نعتقده ، ولا نجد فى نفسك حرجاً منه ، فهى ابنة عمك ، ورفع شأنها يسرك ويشرفك . فقال عنترة :

اقترح ما تشاء، ولا تخش إرهاقاً . فقال مالك :

لئن أرهقتك ، فذلك من أجل ابنة عمك ، ومثلك لا يكره أن تكون فريدة فى مهرها ، لا تدانيها فتاة من لداتها ؛ فقال عنترة :

لا تخش إرهاقاً ولا عسراً ، فاقترح ما تشاء فذلك إلى نفسى أحب الأشياء . فقال مالك :

ولن أقترح إلا نوقاً . فقال عنترة :

وأى عسر فى هذا على ابن أخيك ؟ ! فقال :

تجده فى النوع والعدد ، فقال عنترة :

أبِنْ عن مرادك ، فقال :

ألف ناقة عصفورية ، فقال عنترة :

وهل تختلف عن نوقنا ؟ فقال :

إنها بين النوق كواسطة العقد بين حباته، فإذا عرفت الظباء فى خفتها، واكتناز لحمها ، ودقة عظامها ، وحسن طلعتها ، وإذا عرفت الظليم

ونشاطه، وسرعة عدوه ، وإذا عرفت الوبر وكأنه قطع الدمقس والديباج، وإذا عرفت لحم الحمْلان فى شهى مذاقه، وطيب غذائه – إذا عرفت كل هذا – عرفت النوق العصفورية ، ولن تجدها إلا عند المنذر بن ماء السماء، وهو على ما نعلم من الأيد والقوة، بحيث لا يُنال ، ولهذا أجدنى قد غلوت فى الطلب ، وأرهقتك . فقال عنترة :

لا عسر فيما طلبت ، وستجده لديك حاضراً ، ثم حيا وانصرف ، بعد أن أخذ موثقاً من عمه أن يزوجه بنته .

٥

أخبر عنترة أمه وأخاه شيبوباً ، أن عمه رضيه زوجاً ، ورغب أن يكون مهر عبلة ألف ناقة عصفورية ، وأنه أزمع الليلة أن يرحل إلى العراق ، حيث تلك النوق ، فقال شيبوب :

لو أخبرت مالك بن زهير، لكان لك خير عون، فإنى أخشى عليك بُعْدَ الشقة ومتاعب السفر ، وربما كان ذلك من عمك مكيدة ، يبغى بها نزوحك إلى أمكنة سحيقة ، يتوقع لك فيها مصيبة . وقالت أمه :

وإنى لا أكاد أطمئن إلى براءة عمك من كيد دبّر ، يبغى لك به إحدى الكبر ، فقال عنترة :

وعد أبرمتُه ، ولا بد من الوفاء به ، وعونى فيه ربى وسيفى .

وفى منتصف الليل ، ركب عنترة وأخوه شيبوب جواديهما ، وانسلاّ من الأحياء ، يشقان من حالك الظلام الردّاء ، ويزعجان سكون الطبيعة وهدوءها ، وجعلت الأرض تقذف بهما ، من سهلها إلى صعبها ، ومن نجدها إلى غورها ، ومن عامرها إلى غامرها ، ومن صبحها إلى مسائها ، ومن ليلها إلى نهارها ، كأنهما من تلك الأجناس الوحشية ، التى تألف الوحدة ، وتعيش فى كنف الطبيعة البريئة ، فى معزل عن ابن آدم وغدره .

وأشرف عنترة وأخوه على أرض بنى شيبان، فوجدا حياة مترعة غنى وبذخاً وترفاً ، فهذه بلاد عامرة يكسوها جمال الحضارة ، وهذه مياه جارية كأنها سبائك الفضة المذابة ، وهذه أشجار تطاوع النسمات، فتميل حيث تميل ، وهذه مراع خصيبة ، تحليها خضرة ناضرة ، وهنا خيول صاهلات صافنات ، وهناك نياق حاملات وحائلات ، وهؤلاء غلمان وقيان ، فى روضات يحبرون .

وبينما هو يفكر فى تلك الحياة الناعمة ، وذلك الغنى العريض ، إذ مرّ به هوادج ، تحميها فرسان ، على جياد أخف من الغزلان ، فقال شيبوب :

إن هذا الذى نراه من أموال ورجال، لا يكون إلا لملك عظُمت سطوته ، وعز سلطانه ، فلا يجرؤ أحد أن يناوئه ويغضبه ، فقال عنترة :

يبدو لى صدق نظرك ، وأن عمى ما أرسلنى إلا لألقى حتفى ، ويخلص منى ، فلنواجه أمرنا بحسن التدبير وصدق النظر ، ولنسلم أمرنا بعد ذلك للقضاء والقدر، وأرى أن تتركنى هنا ،وتذهب أنت إلى هذه الديار متنكراً، فتقف على أمر النوق العصفورية ، ثم تأتينى بنبئها ، حتى نحتال فى الحصول عليها ، ونقى أنفسنا كل مكروه وضُر ، فقال شيبوب :

ولتمكث أنت هنا ، حتى آتيك بنبأ يقين .

أودع شيبوب عند أخيه قوسه وكنانته ، ولبس خلقاناً مرقعة بالية ، وذهب إلى المراعى وعصاه على كتفه ،وما رآه العبيد حتى رثوا لشكله وحاله ، فاستقبلوه بما يناسبه من العطف ، وقدموا إليه شهى الطعام والشراب ، فطعم وشرب ، وعرف العبيد من حديثه ولغته أنه حجازى ، فسألوه عن أمره فقال :

أنا عبد من عبيد الربيع بن زياد، غلظ قلبُه ، وبدت فظاظته ، فساءت لذلك المعيشة فى ظله ، ففررت من يده وهمت على وجهى حتى أتيت ، راجياً ألا أرجع إليه ولا أراه ، فقالوا :

وقد ساقك حسن حظك إلى حيث تأمن من كل شر ، فأقم بيننا ، وسنخبر المنذر مليكنا ، أن يهيئ لك سبل المعيشة ، فى رغد وأمن وسعة .

فشكر لهم شيبوب كريم لقائهم ، وعظيم عطفهم ، وأقام بينهم إلى العشية ، وعرف النوق العصفورية ، ثم انفلت إلى أخيه على غفلة منهم ، وشرح له

ما وقف عليه وهو بينهم ، من بأس لا يطاول ، وقوة لا تنال ، فقال عنترة :

من لم يركب الأهوال لم ينل الرغائب، والموت يصيب الفتى فى آخر الصفوف ، ويخطئ من يصارع الأبطال فى أولها ، ولكن سأعرض عليك أمراً ، قد يكون لنا فيه الفوز ببغيتنا ، دون كد أو عناء ، فقال شيبوب :

أبن عن رأيك ؛ فقال : هؤلاء القوم غارقون إلى أذقانهم فى الترف والنعيم ، ولا يدور بخلدهم أن أحداً يغزوهم ، أو يعكر صفو أمنهم ، وأرى أن ننتظر حتى تنتشر النوق فى المراعى ، ويغرق العبيد فى لهوهم ومرحهم ، وإذ ذاك أدخل بجوادى بينهم ، وأحملهم على سوق النوق إلى حيث تبعد عن هذه الديار ، وأما أنت فما عليك إلا أن تسد الطريق على العبيد إلى ديارهم ، حتى لا يتسرب أحد منهم ، يستصرخ قومه ، ويطلب النجدة ، فقال شيبوب :

نعم ما رأيت .

وثار عنترة فى العبيد ، معملاً فيهم سيفه ، وقتل منهم من قتل ، حتى أرغمهم على سوق النوق العصفورية إلى حيث أشار ، وشيبوب من خلفه يرد الهارب ، ولكن أفراداً من العبيد استطاعوا أن يفروا إلى الديار مستصرخين ، ثم خلص شيبوب إلى أخيه ، وساقا ما غنما من نوق وعبيد ،

جادين فى المسير ، حتى لا يلحق بهم أحد من خلفهم ، من أعدائهم .

ولما مال ميزان النهار ، رأى عنترة فرساناً تنهب الأرض من ورائه ، فعلم أن الحرب واقعة بينه وبينهم ،فتلقاهم كما يتلقى الروض وابل المطر ، وخاض المعركة، فى قسوة مخيفة ، وفروسية نادرة ،وهجوم مفزع لا يجرؤ أحد على دفعه ، فيقتل من يقتل ، وهم لا ينالون منه نيلاً ، حتى كان فيهم مثار الدهشة والعجب ، وكادوا يلوذون بالفرار لولا أن النعمان ابن المنذر قائدهم ، نادى فيهم :

لا تسجلوا على أنفسكم خزى الهزيمة أمام عبد واحد ، لو قذفه كل منكم بحجر لقضى عليه ، فاتقدت فى صدورهم نار الحمية ، وحملوا عليه حملة ثقيلة الوطأة ، وشاء القدر أن خارت قوى جواده ، فكبا به ، فسقط عنترة على الأرض راجلاً ، ووقع فى أيديهم أسيراً ، وفر جواده إلى الخلاء شارداً نافراً .

وكان شيبوب مع النوق العصفورية والعبيد الأسرى يرقب الحالة عن قرب ، فلما رأى الأبجر جواد أخيه شارداً فى المعركة وحده ، علم أن أخاه عنترة قد انتهى أمره ، بفنائه أو أسره ، فأسلم ساقيه إلى الريح لا يلتفت إلى شىء ، مخافة أن يصيبه ما أصاب أخاه ، وهو فى حزن عظيم على فقده .

ونشط رجال المنذر فى طلبه ، وهو يعدو أمامهم ، فرأى غلاماً عربياً
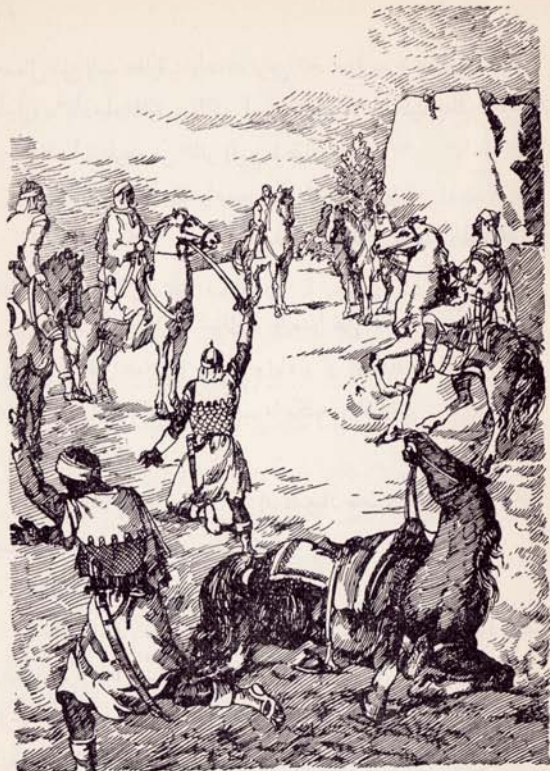
يصطلى على باب مغارة ، وأغنامه ترعى تحت رقابته ، فاستجار شيبوب به فأجاره ، فأدخله غاره ، ولكن فرسان المنذر لا ينفكون يطلبونه ، فطلبوا من الغلام أن يخرجه من الغار إليهم ، فقال :

هبوه لى ، فقد أجرته وأصبح فى ذمامى ، فقالوا :

إنك تطلب محالا ، وإن لم تخرجه قتلناك ، وجعلنا هذا الغار لكما قبراً ، فقال الغلام :

وما دمتم لم تقبلوا فيه سؤالى ، فابعدوا عن الغار حتى أخرجه لكم ، ويصبح فى غير ذمامى ، ودونكم وإياه ، أو أستأذنه فى الرحيل بغنمى ، بعد أن أترك له من الطعام والشراب ما يكفيه ، فقالوا :

لك ذلك .

دخل الغلام الغار ، وقال له : إن الفرسان مصرون على طلبك وأخذك ، وسأشير عليك بما ينجيك ؛ فقال شيبوب :

ولك الشكر العظيم ، فقال الغلام :

اخلع ثيابك والبس ثيابى ، وتنكر فى هيئتى وزيى وخذ هذه العصا ، وهذا الزاد ، فإذا كنت خارج الغار ولقيك الرجال ، فأخبرهم أنك تركت الرجل الهارب فى الغار ، وسق غنمى جميعها أمامك ، وامض بها إلى حيث تنجو بنفسك ، واتركنى لهم ، والله يفعل ما يشاء ، فقال شيبوب :

لا أرضى أن أكون سبباً فى هلاكك ، وأن أنجو بنفسى ، فقال الغلام :

لقد أجرتك ، ولن أنقض ذمامى معك ، ولو جدت بروحى ، فخير لك أن تنفذ ما أشرت به عليك ، وإلا قتلنا معاً ، وعسى أن يجعل الله لى بعد نجاتك فرجاً ، فقال :

سمعاً وطاعة . ونفذ شيبوب ما أشار به الغلام ، ونجا بالأغنام ، إلى حيث لا يعرف أحد منهم له مكاناً .

دخل الرجال الغار وأخرجوا من فيه ، فألفوه الغلام فى ملابس شيبوب ، فبهتوا وقال بعضهم لبعض : لا يزال العربى وفياً حتى تودع روحه جسده ، والتفتوا إليه قائلين : إنك شاب لا تزال فى مقتبل حياتك ، فكيف تجعلها فدية لرجل غريب غير معروف نسبه ولا حسبه ، فقال :

إن العهد والذمام لا يعرفان حسباً ولا نسباً ، ولكنى أجرته ، ولا بد لى من تفديته ، ففعلت ما فعلت وأسلمت نفسى لكم أسيراً ، فافعلوا بى ما تشاءون ، فقد طابت نفسى بالوفاء ، والله يفعل ما يشاء ، فقالوا :

وقد عفونا عنك لوفائك ، ثم خلوا سبيله ، ورجعوا بخفى حنين .

وجد شيبوب فى سيره ، حتى وصل إلى قومه ، والحزن يجلله ، فنعى أخاه إليهم ، ففرح من فرح ، وحزن من حزن ، أما عبلة فقد غشيها من الهم ما غشيها ، على الرغم من أن قلبها لا يطاوعها فى تصديق نبأ شيبوب فى أخيه .

٦

عثر جواد عنترة وأحاط به فرسان الأعداء ، فوقع أسيراً فى أيديهم ، وساروا به إلى مليكهم المنذر بن ماء السماء ، وهم فى عجب عجاب من شجاعته ، وحزن عظيم على من أفناهم من فرسانهم ، وعنترة لا يزال ثابت الجنان ، رابط الجأش ، لا يبالى بجمعهم ، ولا بما يتوقعه من مصير .

وسيق عنترة إلى المنذر مكبلاً ، فألفاه طويل القامة معتدلها كأنه الرمح السمهرى ، ذا رأس عال مشرئب لا يعرف التطامن ، وصدر ممتد يغلى حماسة وحمية ، وذراعين مفتولتين لا يفرقهما عن الحديد الموثقتين به ، ورجلين منتصبتين يحسب الرائى أن كلا منهما قطعة واحدة مصمتة لا مفصل فيها ، وعينين لامعتين مملوءتين ثباتاً واطمئناناً ، ووجه أسود يشوبه نور البطولة والرجولة .

عجب المنذر لمنظره ، فسكت عنه غضبه وسأله : إلى من تنسب من العرب ؟ فقال :

إلى عبس ، فقال المنذر : وما منزلتك فيها ؟ فقال :

حاميها يوم الفزع ، وأملها وقت الجزع ، فقال المنذر :

والمغير لها عند العدم إذا لذع ؟ فقال عنترة :

لا يعرف العدم إلى قومى سبيلاً ، فهم أكثر من على الأرض غنى وثراء .

فقال المنذر :

وما حملك على غزو بلادى ، ونهب أموالى ؟ فقال عنترة :

أحببت ابنة عمى وليداً ، وزكا هذا الحب فى نفسى كلما نما جسمى ، رغبت فى الزواج منها ، فأبى عمى إلا أن يكون مهرها ألف ناقة عصفورية ، فجئت فى طلبها ، فكان مصيرى كما ترى ، فقال المنذر :

ومن عجب أن يخاطر بنفسه شجاع مثلك من أجل فتاة لا تساوى نظرى قلامة ظفرك ، فقال عنترة :

ولقد قيل : ويل للشَّجِىِّ من الْخَلِىِّ .

وكان المنذر من الفصحاء ، فعلم ما عليه عنترة من فصاحة ، وما تحكّم فيه من هوى وما فطر عليه من ثبات وشجاعة ، وبينما هو يفكر فى أمره إذ جاءه نبأ عظيم .

وكان ذلك النبأ أن أسداً عظيماً نفر من عرينه ، فافترس كثيراً من رجاله ، وأخطأته منهم السهام ، ولا يزال ينذرهم بالهلاك ؛ فقال عنترة :

هل للملك أن يفك قيودي ، ويدعنى أمام هذا الأسد ، فإن قتلنى فقد أخذتم ثأركم منى ، وإن قتلته فقد كفيتكم شره ، وكان هذا لقاء إنعامكم علىّ بإطلاق سراحى ، والعفو عنى ؟! فقال الملك :

إن عقلى لا يطوع لى أن أدع فارساً مثلك بين يدى حيوان يأكله ، ويأكل معه مزاياه ومواهبه ؛ فقال عنترة :

طب أيها الملك نفساً ، فالأسد لا محالة هالك ؛ فقال :

ولك بعد هذا ما أردت . وفك الغلمان وثاق يديه ، وأرادوا أن يطلقوا من القيد رجليه ، فأبى عنترة إلا أن يبقوا رجليه مكبلتين فى قيودهما ، حتى لا يستطيع فراراً من قُدّام الأسد، فقد عقد العزم على أحد الأمرين : فإما قتله ، وإما افترسه وكان له طعاماً ، فقال الملك :

دعوه وما أراد ، ثم حملوه على جواد إلى ساحة الأسد، وهناك نزل وغمز الجواد أن يرجع ،ولما رآه الأسد كشر عن أنيابه ، كأنه يبتسم للقائه، وابتسم عنترة أيضاً لما يتوقعه من انتصاره وفوزه ، واستعد الأسد لوثبته، ورفع عنترة ساعده بسيفه لضربته ، فامتزجت القوتان حتى كانتا قوة واحدة ، قوة الهجوم من الأسد، وقوة الضرب من ساعد عنترة ، وأصاب السيف رأس الأسد فشقه نصفين ، وسقط على الأرض قطعتين ، فمسح عنترة سيفه فى جسده ، وعاد فائزاً منتصراً ، فقابله الملك وقومه بفرح عظيم .

وكان المنذر سليم التفكير ، سديد التدبير ، حازم الرأى ، بصيراً بتصريف الأمور ، فأعجبه من عنترة شجاعته ورجولته ، فقرر فى نفسه الاحتفاظ به ، والاعتراف بمقامه ، فأعلن صفحه عنه ، وجعل له الزلفى عنده .

٧

كان للمنذر منزلة سامية عند كسرى ، فهو يحبه ويحتفل به إذا حضر إليه فى قصره، فحسده أحد حجابه واغتابه ، وأغرى كسرى

بامتهانه واحتقاره . فجعل يقول لكسرى :

إنك ملك كبير ، وقد ذاع بأسك فى بقاع الأرض ، وأراك تقرب المنذر إليك إذا حضر ، وتحتفى به احتفاء عظيما فيظن الناس أنك تحتفل به لا عن كرم خلق منك ، ولكن عن خوف منه وخشية ، لأنه معروف بين الناس بالسفاهة والجهالة ، وإن أردت اختباره فادعه إلى مائدتك ، وسنضع أمامك تمراً منزوع النوى ، محشواً بالفستق واللوز ، وسنضع أمام المنذر تمراً غير منزوع النوى ، وانظر كيف يفعل ؟

جعل كسرى ومن معه يأكلون التمر ، ولا يلقون النوى ، إذ أنه قد نزع ، وجعل المنذر يأكل ويلقى النوى ، إذ أنه لم ينزع ، فظن أن من عادة كسرى وقومه ، أن يأكلوا التمر ونواه معه ، فأحب أن يجاملهم ، بأن يكون مثلهم فى أكل التمر ، وجعل لا يلقى النوى ، ولكنه عض بتمرة ، وكانت العضة شديدة ، وسئل عن سبب ذلك، فقال :

رأيتكم تأكلون التمر ونواه معاً ، فجاملتكم وأكلت مثلكم ؛ فأغرق الحاضرون فى الضحك ، وقالوا :

إن تمرنا منزوع نواه ، ومحشو بالفستق واللوز ، أما تمرك فلم ينزع منه شىء ؛ وبدت منهم السخرية والاحتقار ، فغضب المنذر ورجع إلى الحيرة وهو لا يكاد يرى ما تحت قدمه ، من الهم الذى لحقه فى مجلس كسرى وحاشيته ، وهناك جمع مستشاريه وأعوانه وقال :

لقد تعلمون ما نحن عليه من الشرف والعزة ، وما للعرب جميعهم من الفضل والسيادة ، وتعلمون النعمة العظمى التى أسبغناها على كسرى ، بأن منعنا عنه بطش العرب وغاراتهم وغزواتهم ، وأن كنا له حصناً منيعاً ، عاش فى كنفه سالماً آمناً ، ولكن الإنسان بالنعمة كفور ، فقد رأيت منه فى هذه الزيارة ، احتقاراً لنا ومهانة ، إذ حصل كيت وكيت ، وقص عليهم قصته ، ثم قال :

فماذا ترون ؟ فقالوا :

أن نؤلب عليه القبائل ، ينهبون أمواله ، ويذبحون رجاله ، ويذيقونه العذاب الأليم ؛ فقال :

ذلك ما أردته ؛ وأعلن فى القبائل أن بلاد كسرى حل لهم ، يقتلون ويأسرون ويخربون وينهبون ، ويقطعون السبل على قوافل التجارة ، ويلقون فى قلوبهم الرعب والفزع ، حتى لا تطيب لهم حياة أو مقام .

جعل العرب يغيرون على بلاد الفرس من كل جانب ، وكانوا كالجراد المنتشر ، لا يحلون بأرض حتى يحل بها الدمار والخراب .

فزع كسرى من هذه الحال فأرسل إليه ينذر ويهدد ، إن لم يكف العرب عن غاراتهم ، فأجابه المنذر :

إن كنت تريد صد العرب عنك ، فأرسل حجابك الذين سخروا منى فى مجلسك ، حتى أكويهم بالنار فى وجوههم ، جزاء ماضحكوا وسخروا منى ،

وإلا فانتظر حياة بائسة قلقة ، لاتغمض لك فيها عين ، ولا يهدأ لك بال .

غضب كسرى فأحضر حاجبه القائد خسرو بن جرهم ، الذى كان السبب فى إفساد ما بين الملكين ، وأمره أن يغزو العرب بجيش لا يبقى ولا يذر ، وأن يحضر المنذر إليه أسيراً .

وصدع خسرو بأمر كسرى ، وكانت جيوشه لا يحصيها العدّ ، ففتكوا بالعرب ، وأحاطوا بالحيرة من كل ناحية ، حتى لا يلوذ المنذر بالفرار والهرب .

ولما أحس المنذر من قومه الهزيمة ، جمع أولاده وحاشيته وأعوانه ، يشاورهم فيما حل بهم ، وينظرون فيما يدفع عنهم هذا البلاء الذى أحاط بهم ، وكان عنترة من بينهم ، وما كاد عنترة يقف على ما حل بالعرب من سوء المصير ، حتى قال للمنذر :

لا تخش ضيما ولا قهراً ، فإنى أستطيع أن أرد أعداءكم على أعقابهم خاسرين ؛ فقال المنذر :

ولئن فعلت بهم ماتقول ، رددناك إلى ديارك فى عزة ، ومعك ماتشاء من المال والعبيد ، والنوق العصفورية ؛ وأصدر أمره ، أن يكون العرب تحت إمرته ، ووكل إليه أمر الجيوش وقيادتها .

٨

أعدّ عنترة جبهة من الجيوش تبلغ الألف عدّاً، وأمرهم ألا يكون لهم عمل إلا حماية ظهره ، أينما حل وأينما جال وهجم، وامتطى جواده ، وخاض المعركة، ومن ورائه حاميته، وأعمل فى الأعداء سيفه ، فتطايرت الأرواح، وتناثرت الأجسام، واهتزت القلوب فى الصدور ، فولّوا الأدبار مسرعين ، لايعولون على شيء مما تركوا ، واعتبرو النجاة بأنفسهم غنماً وربحاً ، وعجبوا أن جاءهم هذا الفارس الذى لم يصبه سهم، ولم ينل منه سيف ، حتّى ظنوا أنه من المردة ، وأنه إن ألقى فى النار خرج منها سالماً لم يمسسه أذى ، واعتقدوا أنهم لاطاقة لهم بقتاله ، ولكن خسرو قائدهم عز عليه أن يفر بجيشه من وجه فارس، بعد أن كان الغلب لهم ، فأصر على ملاقاته صباح الغد ومبارزته، ليصرعه ويقتله ، وقوّى بذلك أفئدة رجاله، وثبت أقدامهم .

وجاء الصباح والتقى الفارسان عنترة وخسرو ، فجعل عنترة يناوشه ويعابثه ، حتّى كلّت قواه ،ثم ضربه بالسيف ضربة أطار بها رأسه ، فهوى عن جواده جثة هامدة .

قُتِل قائد الفرس تلك القتلة الشنيعة، على مشهد من جنده، فدب فى نفوسهم دبيب الضعف، وقوى هذا القتل عزائم العرب ، وأغراهم بالفرس،

فثاروا فى وجوههم ، وجعلوا يحصدونهم حصد الهشيم ، حتّى نكصوا على أعقابهم خاسئين . وتلقى المنذر عنترة لقاء حسناً ، وأنزله منزلاً مباركاً ، وجعل المغانم فى هذه المعركة له وحده ، وقال :

لك ما تشاء من الأموال والنوق العصفورية، ولو رضيت البقاء عندى لأرسلت إلى زهير أن يبعث بعبلة إليك رغَباً أو رهباً،ولكنى أخشى أن يشق ذلك عليك ،لأنه قد يساورك الحنين إلى ديارك وأهلك ؛ فقال عنترة :

ولك عظيم شكرى ، وأرجو أن تيسر السفر إلى بلادى ، وأنا لك فى أى وقت تشاء ؛ فقال المنذر :

ولقد قدرنا فضلك حق قدره ، وأصبحت منى كأحد أبنائى ، وأخشى أن يكون كسرى الآن فى استعداد أكبر ، لينتقم منا ، وينزل بنا من الهزيمة مايكون خطراً على العرب أجمعين ؛ فقال عنترة :

وسأعكف بينكم حتّى يستقر الأمر ، وتأمنوا جانبه ، فقال المنذر :

وذلك فضل آخر لا ننساه .

وذاع فى جزيرة العرب أمر كسرى ، وتنكّره للمنذر ، وتوقعوا أن هزيمة الفرس النكراء ،ستعقبها حرب تطحن الفريقين ، وتأكل الأمتين ، وإن لم يعجل السفراء بإصلاح ذات البين، وتهدئة الملكين ، عظم الداء ، وعز الدواء .

° ° °

وكان من حكماء العرب ، وذوى الحنكة واللباقة فيهم ، رجل معمر يدعى عمر بن نفيلة ، فذهب إلى المنذر وعرض عليه أن يذهب هو إلى الموبذان حكيم الفرس ، وصاحب الرأى فيهم ، والذى تنتهى إليه أخبار الدولة ، وهناك يتشاوران فى ذلك النزاع الطارئ ، عسى أن يصلا إلى أمر يكون فيه صون الدماء ، وإقرار الود والولاء ، فقال المنذر :

ما عليك بأس فى ذلك .

وجلس عمر بن نفيلة إلى الموبذان فقال : لقد علمت ما أصاب العلاقة بين العرب والفرس من فساد ، وماهم مقبلون عليه من حرب طاحنة ، وتبعة هذه الحال واقعة على حكماء الأمتين إن لم يتداركوها ، قبل أن يفلت من أيديهم زمامها ، وأنت معروف بالحكمة وحسن السياسة ، والقدرة على معالجة الأمور وإن صعبت وتعسرت ، كما تعلم أن أبغض الأشياء إليك إراقة الدماء ، وأن تتحول الديار الآمنة إلى غابات وحوش ضارية ، وقد جئت إليك ، لأستعين بحكمتك ، ومنزلتك عند كسرى وأمتك ، أن تغمد السيوف ، وتمحى الأحقاد والضغائن ، ويعود السلام بين الأمتين على أحسن حال ؛ فقال الموبذان :

لقد شغلنى هذا الأمر طويلاً ، وفكرت فيه كثيراً ، وكنت أود أن ننتهى فيه إلى رأى جازم ، ولكن صرفنى عن الاستمرار فيه ، أمر آخر ذو بال ، لم يكن يخطر على أذهاننا بأية حال ، وهو فى جوهره لا يختلف

عما نحن فيه ، وقد حجزت نبأ هذه الحال ونبأ المنذر عن كسرى إلى أن يحين الوقت المناسب لإخباره بهما أو بأحدهما حتى لا أجمع عليه همين ، وأؤلف فى صدره بين غمين ؛ فقال عمر :

وما ذلك الهم المفاجئ ؟ فقال :

يحمل الروم إلينا كل عام جزية ، لقاء تركهم وشأنهم ، ومسالمتهم ، وفى هذا العام حضر مع الجزية بطريقٌ وقال :

لقد أمرنى ملك الروم ألا أعطيكم الجزية حتى تبرز إلى فرسانكم فارساً فارساً ، فإن غُلبتُ أو قُتِلتُ كانت الجزية من حقكم ، ودأبنا على إرسالها كل عام لكم ، وإن غَلَبتُ فرسانكم رجعت إلى مليكنا وقطعناها عنكم . وأخشى ياعمر أن يكون الغلب للروم ، فتصبح الفرس مطمع الأمم .

أما أمر الروم فهين ، لأنه قائم على قواعد العدالة والإنصاف ، وكسرى يحب العدل ويحب من يأوى إلى كنفه ، ولهذا أنبأته نبأهم ، فلم ينكره عليهم ، وأمر أن تبارزه الفرسان .

وأما هزيمة جيش كسرى فى حربكم فلا تزال فى طى الكتمان ، حتى أصل إلى مخرج يكون فيه صون للأمتين ، ووقاية للجيشين ، فقال عمر :

وما وصل إليه أمر المبارزة ؟ أكانت لكم أم عليكم ؟ فقال :

مضى عليها ثلاثة أيام ، ولا تزال قائمة ، ولا يزال النصر فى جانب البطريق .

فقال عمر :

ألم يبلغك خبر الفارس العبسى وما فعل بجيش كسرى وقتله القائد خسرو ؟ فقال :

بلى ! فقال :

وماذا عليك لو أقنعت كسرى بطلبه ليقوم بمبارزة البطريق وأناضامن لكم أن يصرعه ، ويرد أصحابه الذين معه إلى ملك الروم خاسرين . فقال الموبذان :

أنظرنى حتى أذهب إلى كسرى وأحاول أن يرضى بما رأيت .

وكان الموبذان فى حضرة كسرى ، فقال الملك :

وما تم فى أمر المبارزة بين البطريق وفرساننا ؟ فقال :

ثلاثة أيام لم ينل فيها فارس من البطريق شيئاً . فقال :

اكتب إلى خراسان أن ترسل أشد فرسانها ، ثم اختر منهم من هو أقدر على مبارزته ، والتغلب عليه ، فقال :

ذلك إقرار منا بأن عاصمة الملك وماحولها ألقت سلاحها أمام فارس واحد من فرسان الروم ، وهذا ما لا نحب أن يعرفه إنسان ، فإذا رأيت أيها الملك العظيم أن نكتب إلى المنذر ملك العرب أن يرسل إلينا جماعة من العبيد ، فإنا لا نعدم فيهم أن يفتكوا بهذا البطريق فى لمح البصر ، فأنت تعرف العرب وما هم عليه من شجاعة وقوة ، ومقدرة على خوض معارك القتال والمبارزة إلى درجة لا ينافسهم فيها منافس ، ولا يطمع فيها طامع ،

وإذا كان الفوز حينئذ للأتباع من عبيدنا كان الفوز أجدر بفرساننا ؛ فقال :

هذا حق ، ولكن كيف نكتب إلى المنذر والقتال قائم بيننا وبينه ولا يزال عندهم القائد خسرو وجيشه ولم يصلنى إلى الآن خبره ؟ فقال الموبذان :

أدام الله ملكك ، لقد مَنَّنِىَ خسرو بفارس عبسىّ قتله ، وفتك بجيشه ، ورده إلى الديار مهزوماً ، ثم قص عليه شيئاً من تاريخ هذا الفارس العبسى عنترة ومواقفه المشهودة فى ساحات الحرب ، وسبب غزوه المنذر والتنكيل بجيشه ، حتى أعجب به كسرى ، ثم قال :

وقد أخفيت نبأه عنك ، حتى لا أجمع عليك فى وقت واحد همين ، فإذا رأيت أن تكتب إلى المنذر فى إرسال هذا الفارس كان خيراً ، فقال كسرى :

وكيف تصدق مجيئه ، وهو لا يأمن جانبنا ، إذ قتل قائدنا ، وشرد جيشنا ، وأنزل بنا تلك الهزيمة النكراء ؟ فقال :

أنا أعلم أنهم سيلبون دعوتك ، رغبة منهم فى نسيان الماضى ، وإحياء عهد جديد ، قائم على تآلف وأمن وسلام ، فقال كسرى :

وما دام الأمر كما وصفت ، فافعل ما شئت ، ولتعجل به من فورك ولهذا الفارس العبسى إذا انتصر كريم العطاء ، وغوالى الهدايا ، ونحمله إلى من يحبها على أحسن حال .

سر الموبذان بذلك ، وقام إلى عمر بن نفيلة ، وأخبره ما كان من كسرى ، وما انتهى إليه رأيه وأمره ، فكتب عمر إلى المنذر واصفاً له

ما جرى ، وطلب إليه أن يحضر ومعه أبو الفوارس عنترة ، وكشف له فى كتابه هذا عن وجه الحقيقة .

وما كاد المنذر يقرأ كتاب عمر حتى اطمأن قلبه ، وخف إلى كسرى فى صحبة عنترة ، ومائة فارس من أشداء رجاله ، فلقيه كسرى بما يناسبه من الإعظام وقال :

لقد أخطأنا فى معاملتك عن غير قصد ، وكان السبب فى ذلك خسرو الذى لقى حتفه على أيديكم ، وكان هذا جزاء الحاسد الذى يحسد الناس على ما أوتوا من فضل ونعم ، وأمر كسرى أن يستريحوا إلى غد ، فقال الموبذان :

أعز الله الملك ، إن عنترة الذى قتل خسرو قائدنا ، والذى فتك بجيشه ، أبى أن يأكل لنا طعاماً حتى يقضى على بطريق الروم ، فقال :

وأرى من الخير والحيطة أن يستريح الليلة ، ويرجئ إلى غد لقاءه ، فقال :

ألحفنا عليه فى ذلك فأبى ، فأخبرناه أن بهرام بن بهرمان الديلميّ لم يستطع أن يتغلب عليه ، وهو يبارزه يومين كاملين ، ولا نتوقع له إلا هزيمة ، وقد صرع هذا البطريق قبله كثيراً من الفرسان دون أن يقتلهم ، حتى ظهرت لنا قوته ودربته ، وظننا أنه لا يوجد من يغلبه ويصرعه ، فقال عنترة :

إن غابت شمس هذا اليوم وبطريق الروم ينشق نسيم الحياة فلحمى طعام للوحوش والذئاب ، فلم يجدوا مفراً من الإذعان لرأى عنترة .
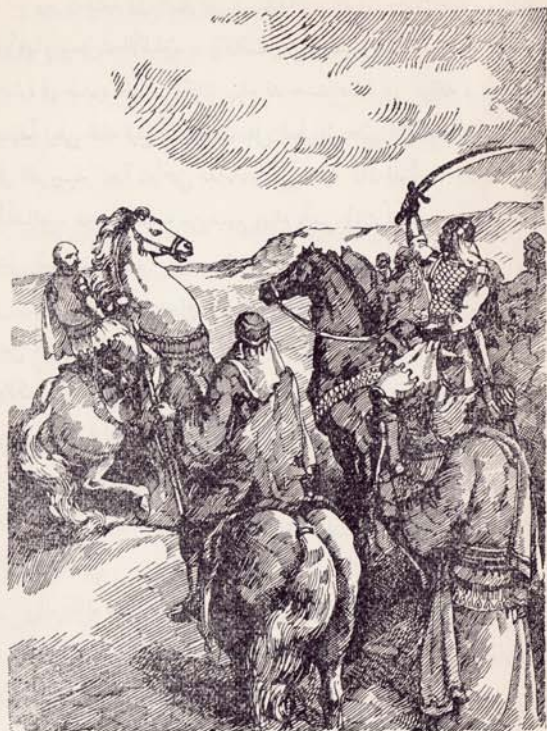
وبرز عنترة إلى البطريق فى الميدان، فصالا وجالا جولات أذهلت الأفهام وحيرت الألباب ، وكانت على البطريق القاضية، إذ نفذ سهم عنترة فى صدره فقتله . وكان بهرام قد حسد عنترة على موقفه ، فأرسل إليه سهماً يبغى قتله قبل أن يتغلب على البطريق حتى لايكون أحد أعلى منه فى الفروسية كعباً ،وأسمى مقاماً،ولكن عنترة كان قد أخذ حذره لأنه بين أعدائه ، فحمى نفسه من سهم بهرام وأسر ذلك فى نفسه ،حتى يقضى على البطريق الذى أمامه .

وهجم عنترة على بهرام هجوم القضاء ، فصاح كسرى أن يردوا بهرام عن البروز إلى عنترة حتى لا يسقيه كأس الردى ، فسارعت الحجاب والكبراء راجين متلطفين ، وحالوا بين عنترة وما يبغى من قتل بهرام ، وساروا بعنترة إلى كسرى فى حفاوة وتجلة ، وفرح وغبطة ، فقربه إليه ، وأسبغ عليه منحتهُ السنية، وأمر أن يمنح ما أحضره البطريق هذا العام ، من أموال وجوار وخيل، ثم التفت إلى من كان مع البطريق من بطارقة الروم قائلاً :

إن كان فيكم من يبغى مبارزة فليخرج ، فقالوا:

وحقك ماجئنا إلا لنشهد أمام مليكنا بما علمنا وشاهدنا ، ونرجو أن تأذن لنا فى الرواح، فأذن لهم وانصرفوا ، واستقر الأمر بين الفرس والروم على ما كان ، كما استرد المنذر اعتباره ، وعادت إليه هيبته واحترامه ،

لدى كسرى وقومه ، وأصبح عنترة الفارس الأول الذى حل فى سويداء القلب من المليكين، وذاع صيته بين الأمتين ، وقد منحه كسرى جزية الروم جميعها قائلاً :

هذه أموال ملكتها بساعدك، ولك عندنا من الهدايا ما يناسب قدرك .

* * *

وجد المنذر والفارس العبسى عنترة قصر كسرى منيفاً ، بنى بالمرمر ، ورصع بالدر والزمرد ،وطليت سقفه بالفضة والذهب ، وبسقت شرفاته ، غنى بأرائكه المنضودة ، ونمارقه المصفوفة ،وبسطه المفروشة ، وعج بالخدم والحشم ، والجوارى الحسان ، توسط بستاناً فسيح الأرجاء ، فيه من كل فاكهة زوجان، تتجاوب الطيور على دوحه ، وتغرد على أفنانه .

وفى وسط ذلك البستان بركة مياهها كذائب الفضة، زينت حافاتها بتماثيل الطيور والغزلان، والسباع وضروب الحيوان،وتوسطها تمثال طاوس يسيل الماء من منقاره ، فى منظر رائع جميل .

ودعا كسرى المنذر وعنترة أن يصحباه إلى الصيد ، ولما أشرفوا على مكانه ، المملوء بصنوف الحيوان الوحشى ، نفر الفرسان إلى الوحوش ، وجعلوا يعدون خلفها هنا وهناك، وكسرى ومن معه يتفرجون وينظرون ، فنهض عنترة إلى هذا الميدان وعدا خلف جَمْهرة من ضوارى الوحوش، حتى كان بها على مد البصر ، وبينما هو يحتال فى قنصها ، إذ طلع عليه

فارس ، وضربه ضربة عنيفة على ظهره ، وكان عنترة لا يتوقع منه ذلك لأمنه ، فالتفت إليه فى حنق وغيظ وقال :

ماحملك على هذا ؟ وكان هذا الفارس بهرام بن بهرمان ، ومن ورائه جماعة كمنوا خلف الروابى ، لإنقاذه إذا ما حاق به الخطر ، فقال بهرام :

أنا الذى أتيت لأقضى عليك ، جزاء قتلك خسرو ابن عمى ، وحتى لاتخرج من ديارنا معززاً مكرماً ، وتترك لى تلك المذلة والمهانة ، بقهرك لى وقت المبارزة ، فأجابه بضربة فى صدره ، من كعب رمحه ، أوقعته عن جواده فى غشية ، فأسرع أصحابه من كل جانب إلى عنترة ، وتزاحموا عليه يبغون قتله ، فشرد جمعهم ، بعد أن قتل منهم من قتل .

وكان خبر ذلك قد خف إلى كسرى ، فأرسل إلى عنترة من أحضر أصحاب بهرام إليه ، وهناك قص عنترة قصتهم ، وأظهر غدرهم وخيانتهم ، فقضى كسرى أن تقطع أعناقهم ، ولكن عنترة شفع عنده لهم ، وقال :

العفو منك أمثل ، وبى — لأنى مرتحل — أجمل .

فقبل كسرى شفاعته فيهم ، وأطلق سراحهم ، وزادت منزلته عنده ، لشجاعته ومروءته ، ثم قفل كسرى ومن معه إلى البستان .

* * *

أعد الخدم ما أمر به كسرى ، فهذا سريره ذو القوائم الفضية ، ومن حوله كراسى من عاج مرصعة بالذهب والفضة ، يتوسطها مائدة ، جمعت

ما لذ وطاب من ألوان الطعام ، فجلس كسرى وجلس أصحابه ومن بينهم المنذر وعنترة ، فأكلوا حتى شبعوا ، ثم جعل عنترة يثنى على كسرى ببيانه الرائع وعباراته الجميلة .

وكان كسرى يعرف لغة العرب ، فطرب لقوله ، وزاد بذلك محبة وقربى لديه ، فقال :

إن ملكى لو منحتكه ، لا يساوى ما أوليتنى من هذا الثناء ، لأن الملك يزول ، أما الثناء فباق مابقى الزمن ، فسل ما تريد ، تجده حاضراً لديك ، فقال عنترة :

لا أبغى إلا تاجاً مثل هذا ، تلبسه عبلة عند زفافها ؛ فأمر عبيده بلغته ، فانفضوا مسرعين ، ثم عادوا ومعهم قبة من الديباج ، قد رصعت بالذهب والجوهر ، وتاج يشبه تاج كسرى ، فوضعوهما أمامه ثم قال :

هذان لابنة عمك يا عنترة ، ولك بعدهما ما تشاء ، فاطلب ما تريد ، فقال عنترة :

أتم فضلك بالسماح لى بالعودة إلى أوطانى ، ومعى مهرها الذى فارقت الديار من أجله ، فأمر الموبذان أن ينجز له طلبته ، ويفتح له خزائنه ، يأخذ منها ما يحب ويختار وأن يعاهده على زيارته كل عام .

وفتحت لعنترة أبواب خزائن كسرى ، وعرضت عليه تحف الملك ونفائسه ، فاختار منها ما شاء ، على سبيل المنحة والعطاء ، تقديراً لما فطر

عليه من مروءة ووفاء ، وعزم ومَضاء .

وسار كسرى فى جمع حافل من أجناده وحاشيته ، وأعيان أمته ، حتى بعد المنذر وعنترة عن دياره ، ثم وقف الراحلون يستأذنون ويشكرون ويسلمون .

وكان السلام والوداع ، ثم رجع كسرى إلى مقر ملكه ، وسار المنذر وعنترة ومن معهما من الغلمان إلى مقصده ، حتى وصلوا إلى الحيرة ، فكان يوماً مشهوداً ، واستقبالا رائعاً حميداً ، وأمر عنترة غلمانه أن ينصبوا خيامهم ، فكانت مقصد كل عربى ، لروعة جمالها ، وما امتازت به من مظاهر الحضارة الفارسية ، وأدهشهم ما رأوا من أموال وزينة ، وعبيد وجوار ونعم ونوق عصفورية .

...

طلب المنذر من عنترة أن يقيم فى ضيافته حيناً من الزمن ، ولكن عنترة أبى إلا أن يعجل الرحيل إلى الوطن ، فأقام ثلاثة أيام ، خلع عليها الدهر لباس البهجة والسرور ، ثم ودع المنذر وقومه فى اليوم الرابع ، محفوفاً بمظاهر التجلة والإكبار ، مزوداً بالهدايا العراقية ، من عتاق الخيل ، ونجائب الإبل ، وكثير من الجوارى والعبيد .

وجَدَّ عنترة ومن معه فى طلب الديار ، يقطَعُون الرَّوابى والقفار ، حتى كانوا ببقعة يقال لها ذات المناهل ، كثُرت جداولها ، واخضرت نواحيها ، وغشيتّها الوحشة ، فأمنت وحوشها أن يفزعها طارق أو عابر ، فتقدم عنترة

وحده يرتاد هذا المكان ، ليتخذ منه مقاماً للراحة والاستجمام ، وإذا هو بخمسة من عبيد العرب ، يتوسطهم هودج على رأسه هلال من ذهب ، يخرج منه صوت ينادى : واعنترة ! ! غامت الآفاق ، وغابت الأسود ، وتحكمت فينا الذئاب ، واذُلاَّ بعدك يابن عمى !

ويجيب العبيد : ويحك ياخناء، لو كان فارسك الذى تزعمين حيًّا ، لسقاه سيدنا كأس الردى ، فاعتصمى بالصمت ، وإلا حلت شِقْوتك ، وانقطع حبل حياتك .

تقدم عنترة سائلاً :

لمن تُنْتسَبون أيها العبيد؟ ولمن هذا الهودج الذى يفيض أنيناً وحسرة؟ ومن فتاته التى تتهالك على نفسها حزناً وذلة ؟ فلم يرفع أحد منهم له رأساً ، وفى إطراقة ساخرة قال أحدهم :

دع عنك هذا الفضول ، وامض لشأنك ، وإلا جاء أجلك ، وحان حينك ؛ فحدثته نفسه أن يجرد حسامه ، ويقضى على الخمسة ، ولكنه أحب أن يعرف الأمر قبل أن يفصل فيه السيف ، وإذا بالهودج ينشق جانبه عن عبلة ، فألقت نفسها فى أحضانه قائلة : عنترة ! عنترة ! ألا تزال حيًّا وعبلة تقاسى همًّا وحزناً وبغياً ؟ !

امتطى العبيد صهوات جيادهم ، وهموا بعنترة أن يقتلوه ، ولكنه أعجلهم برمحه ، فأردى عبدين منهم ، وفزع ثلاثتهم إلى الروابى هرباً ، ولم يرد عنترة أن يتبعهم وآثر أن يبقى ليستمع إلى حديث عبلة عن شأنها ، مدة غيبته.

٩

جلست عبلة إلى عنترة أمام الهودج الذى نبذها كما نبذ الحوتُ يونُسَ عليه السلام ، وجعلت تقص قصتها ، وتذكر له حوادث ألمها إبّان غيبته وارتحاله ، فقالت :

قدم علينا شيبوب وهو مكروب النفس وفى هم لا يطاق ، فخف إليه الحى ليعرف أمرك وأمره ، وما كاد يرسل نَعْيك من فمه ، حتى غم على أبيك وإخوته ، ومالك بن زهير وصحبه ، وجميع المحبين لك ، وتنبهت ضمائر أعدائك ، فسايروا الأحباب فى الحزن عليك ، ، والأسف لفقدك ، والاعتراف الظاهر بفضلك ، وإن كانت نفوسهم تخفى سرورهم بفقدك ، وكان أبى هدفاً لسهام الملام ، فلم يطق فى الحىّ مقاماً ، فضرب فى الفلاة ، ومعه خمسة عشر فارساً ، يبغى الكسب ، ويفر من سخط الحى وغضبه ، إذ كان سبباً فى ارتحالك ، وضعف بنى عبس بموتك ، حتى وصلوا إلى أرض بنى كنانة ، وكان قد اشتد حرُّ الهجير ، حتى كان يذيب منهم الرءوس ، واشتد بهم العطش ، وأعوزهم الماء ، فارتاد أخى عمرو ذلك الوادى ، عسى أن يجد فيه منهلا ، يروون به غلتهم ، ويطفئون بمائه نار عطشهم .

وجد أخى عمرا ، فى ذلك الوادى نهراً قام على جانبه بيت من الشعر ، ورمحا مركوزا على بابه ، وفرساً مسرجاً بجواره ، فوقف شارد الخيال مضطرباً ، وإذا بامرأة عجوز ، شاب رأسها ، وامتد قوامها ، وتهدج صوتها تصيح قائلة :

ويل لك أيها القادم ! ما الذى ساقك إلى هذا المكان ؟ فقال عمرو :

يا أمَّ الفوارس ، ساقنى ظمأ مُلِحّ ، وحاجة إلى منهل سائغ ، فمن أنتم؟ وكيف اتخذتم من هذا المكان داراً لكم ؟ فقالت :

نحن من بنى كنانة ، أهل الوفاء والأمانة ، ولا خوف علينا إن حططنا رحالنا فى أى مكان .

وطلع حينئذ من باب القبة المضروبة ، فتى ممدود القامة ، ضخم الجثة ، مشدود العصب ، عظيم الرأس ، عليه مظاهر الشجاعة والقوة ، وكان هذا الفتى واقد بن مسعرة الكنانى ، خرج فى صحبة أمه ، غضبانَ من قومه ، فقال لعمرو أخى :

من أنت أيها الوافد؟ أجب وأوجِزْ ، وإلا عجلت لك موتك ؛ فأخذت عمرا حميته ، وقال من فوره :

أما كان لك أن تتعرف الناس فى لين من القول وأدبه ؟! أنا من كرام بنى عبس ، وتلك نسبتى وحسبى . فقال واقد فى نغمة ساخرة :

لقد انتسبت إلى قوم لا شرف لهم ، إذ أدخلوا العبيد فى أحسابهم ، ولوثوا بهم أنسابهم ؛ وأسرع إلى جواده ، فعلا ظهره ، ثم هجم على عمرو فاختطفه ، وشد وثاقه ، وألقاه بجانب القبة أسيراً .

وطالت غيبة عمرو أخى على أبيه فخرج هو وفرسانه فى أثره ، حتى أشرفوا على ذلك الوادى ، فرأوا واقداً على جواده ، وعمرا يحتضن الأرض فى قيوده فطار لبُّه ، وهجم هو وركبه ، يبغى خلاص ابنه ، ولكن واقداً أعجله بضربة ، ألقته عن ظهر جواده ، وأعجل السيف فى فرسانه ، فقتل منهم خمسة ، وجرح سبعة ، واستسلم باقيهم ، فأوثق كتافهم ، وأسرهم .

وجاء إلى واقد عشرون رجلاً من وجوه بنى كنانة ، يزيلون ما فى نفسه من غضب ، ويرجعون به إلى قومه ودياره ، فألفوا بنى عبس لديه مأسورين ، فأعجبوا بشجاعته ، وحملوه على أن يعود معهم ، فأجابهم إلى رغبتهم ، وساروا إلى ديارهم ، وبنو عبس يساقون بين أيديهم ، فتلقاه قومه بالبهجة ، وفرحوا أن جاءهم فائزاً غير مغلوب .

١٠

اطمأن واقد فى حيّه ، بين مظاهر الإعجاب من قومه ، فأحضر مالكاً ومن معه ، وطلب إليهم أن يفتدوا بما يملكون من خيل وإبل ، فقالوا لقد

خرجنا فى طلب الرزق ، ولما يعلم قومنا شيئاً من أمرنا ، فإن أردته سلماً وأمناً ، فأطلق سراحنا ، وإن أردته ثورة وفتنة ، فافعل ما تشاء ؛ فأغلظ لهم فى القول ، وهم أمامه صابرون ثابتون .

ودخلت عليهم إذ ذاك عجوزٌ تتهالك على نفسها ، وأمسكت بيد واقد وقالت له :

يا بنى ، سأشير عليك بما لا تقبل فيه ملء الأرض ذهباً ، فقال :

وما ذاك ؟ فقالت :

لهذا الشيخ — وأشارت إلى مالك والد عبلة — فتاة لم تطلع شمس الجزيرة على مثلها خلقاً وجمالاً ، فإن رأيت أن يفتدوا بها كان لك فيها كل الغَناء ، فتنبه الهوى فى نفسه ، واتقدت جمرة الغرام فى صدره ، والتفت إلى مالك قائلاً :

لقد عُرِفت هذه العجوز بيننا بصدق القول ، وحسن الرأى ، وقد رضيتُ بما أشارت ، فماذا ترى ؟ فقال مالك :

لهذه الفتاة حديث عجب ، وتاريخ مضطرب . فزاد هذا القول هيامه بها ، وطلب إليه أن يسرده غير تارك منه شيئاً .

ولما فرغ مالك من قصصه ، قال له واقد :

وماذا أنت فاعل الآن وقد عقدت العزم على زواجى منها ، وإن كانت فوق السحاب ، فقال مالك :

ليس لى بعد موت عنترة الذى كنت سبباً فيه حياة هنيئة بين أهلى وقومى وأرى المقام فى ديارك ، والحياةَ بجوارك ، فإن رأيت أن أعود إلى الديار ، وأحتال فى انتزاع عبلة منها ، والقدوم إليك بها ، تحققت أمنيتك ، وأقمنا معك ، وهؤلاء أبناء عمى رهينة لديك ، ولا تعدو غيبتى سبعة أيام على الأكثر ، فقال واقد :

لك ذلك ، ومعك عمرو ابنك ، يساعدك على الوفاء بما وعدت .

ودخل مالك وابنه معه داره ، فوجد عبلة منكبة وهى تبكى ، فرقَّ لحالها ، وأقبل عليها يخفف من لوعتها ، ويغريها بالتجلد والصبر ، حتى هدأت حدة حزنها .

ثم أسر إلى زوجه بجملة أمره ، وبمن فى الأسر من بنى عمه ، على أن يكون ذلك فى موضع السر من قلبها ، فقالت :

ليس لك الآن فى هذا الحى إلا كل ناقم أو غاضب ، وخير لنا أن ننزح عن هذه الديار إلى حيث يطيب لنا المقام ، فما يرضى الإقامة فى أرض يضام بها إلا كل ذليل .

اختلى مالك بابنته وقال :

لقد تعلمين يا بنيتى أن عمارة أشد الناس فرحاً بموت عنترة وأنا أعلم أنك لا ترغبينه ، وأخشى أن يحضر من سفرته ، ويرغمنا على الزواج منك دون أن نستطيع دفعه ، فقد شُلَّ ساعدنا بموت عنترة ، وأرى أن نرحل عن

هذه الديار مدة من الزمان ، إلى حيث لا يعرف لنا مكان ، حتى تنكشف الغمة ، وينجلى فى وضوح أمر عنترة ، أو يقيّض لك من ترغبين فى زواجه ؛ فقالت :

أما الزواج من غير عنترة فمحال أن يكون ، وأما أمر الرحيل فدونك وما تريد .

وسار مالك بأهله إلى الفلاة ، قاصداً ديار بنى كنانة ، وفاء بوعده ، وليطلق سراح بنى عمه ، ولما أشرف على وادى الظماء ، ألفى واقداً فى انتظاره ، ومعه الأسرى من بنى عبس ، وهناك أطلق واقد سراحهم ، وسمعت عبلة والدها يحدثه :

هذه بنتى جئت بها إليك ، لتكون لك زوجاً ، وها نحن أولاء قد غادرنا ديارنا إلى غير رجعى ، لنعيش فى ظلالك ، حتى تنقضى آجالنا .

وعلمت عبلة أنها سيقت إلى هذا الفتى بغتة ، وأخرجت من ديارها إليه على غير علم بمصيرها ومشورة ، فالتفتت إلى أخيها عمرو قائلة :

لقد بدا غدركم بى كما غدرتم بعنترة ، وإنكم لا تزالون تبيعوننى بيع السلع ، على هُدًى من المنفعة والهوى ، وماذلك بعجيب من قوم يئدون البنات ، ويسلبون فلذات أكبادهم حق الحياة ، ومن يا عمرو هذا الفتى الذى تقدمون عرضكم إليه طواعية واختياراً ، فى غفلة من الأهل والعشيرة ؟ !

فقال عمرو :

هذا فارس من رجالات كنانة ، منّ على أبيك وأخيك وبنى عمومتك بفك الرقبة ، بعد أن وقعنا فى أسره ، وأضحت حياتنا فى يده ، فقالت :

ما أسفه أحلامكم ! ! تعتبرون تحرير رقابكم مَنًّا وتفضُّلاً ، وأنتم تدفعون لقاءه عوضاً هو أعز على الرجل الحر الكريم من الحياة ؟ ! وكان جديراً بكم أن تشتروا رقابكم بسيوفكم وأموالكم ، وتبيعوها فى صون أعراضكم وبناتكم ! ! أين أنت يا عنترة ؟ ! أين أنت يا عنترة ؟ ! تجرّع القوم كأس المذلة من بعدك مُترعة ، وهذا ما جناه علىّ أبى وأخى ! !

وكان أبوها قد حضر إليها فاستمع لبعض حديثها لأخيها ، فعظم عليه الأمر ، وخشى أن تستعصى عليه ، وتجنح إلى النفور والإباء ، فجعل يسترضيها ويمنيها بحياة عزيزة هنيئة فى كنف واقد وكفالته ، ورجاها أن تستعصم بالصبر وكظم الغيظ حتى يصلوا إلى ديار كنانة ، وعسى أن يكون لهم فى تلك الفترة ما ينفس الكربة ، ويكشف عنها تلك الغاشية .

وفى هم شامل ختم على قلبها وعقد لسانها دخلت هودجها ، وسار بها واقد وأهلها إلى ديار كنانة ، وودعوا بنى عمومتها إلى أحيائهم ، بعد أن وصوهم كتمان ما وقع لهم ، وما كان من مصير عبلة وأهلها .

• • •

وبينما هم يسيرون إذ انشق غبار عن ثلاثين عبداً فى لون الليل البهيم ، مقبلين عليهم كالغمام ، تبرق أسنة رماحهم من فوق رءوسهم ، وتعدو بهم

جياد كريمة ، يقدمهم عبد طويل القامة ، يسمى طارقة الزمان ، وكان صاحب الكلمة فى تلك الثلة من العبيد ، فَظًّا غليظ القلب ، لا يقف عند حد فى سبيل نزواته الخاطئة ، وقف نفسه وجماعته على قطع السبل ، وإزعاج الأمن ، لا يفتئون مرتحلين ، من فلاة إلى فلاة ، حتى لا يلحق بهم طالب ثأر أو دم .

وأراد واقد أن يُرِيَ عبلة من شجاعته وصلابة نفسه وشدة بأسه ، ما يجعلها ترغب فيه ، وتنسى به عنترة وتسلو همها من أجله ، فتصدى لطارقة الزمان ، وتصدى فرسانه لعبيده ، وما هى إلا جولات معدودات حتى كان واقد على أثرها فى عالم الفناء ، وفرسانه بين مقتول وهارب ، ومالك وأسرته أسرى ، وعبلة لا تزال غارقة فى بحر همومها ، نادبة عاثر حظها ، ترجو لها خلاصاً وإن كان فى مجىء أجلها .

وتركهم طارقة الزمان حيث قيدهم ، وذهب إلى بعض شأنه مع عبيده ، فانتهزت عبلة غفلته عنهم ، وأسرعت إلى أبيها وأخيها ، فحلت وثاقهما ، وامتطى كل منهم جواداً ، وفروا هاربين ، ولما قضى طارقة الزمان مأربه الذى كان قد ذهب إليه ، رجع إليهم فلم يجد لهم أثراً ، فصاح فى عبيده أن ينفروا معه إلى الخلاء ، حتى يلحقوا بالهاربين ويرجعوهم إلى حظيرة أسرهم .

وبينما هم يسابقون الريح هرباً ، إذ رأوا عشرة فرسان من بنى عبس ، فخفوا إليهم يبغون عوناً منهم ، فألفَوْا عمارة الوهاب وعروة بن الورد من

بينهم ، وكانوا عائدين من اليمن ، وعمارة مسرور يتلهَّف إلى دياره شوقاً ، حتى يتم زواجه من عبلة ، إذ كان قد علم موت عنترة فى رحلته .

وما كاد عمارة يلتقى بمالك ، ويرى عبلة معه ، حتى نسى الدنيا ، والإسراع فى العودة ، وأراد أن يتثاقل فى المسير ، ولكن مالكاً قال له :

لا تعوق مسيرنا ، وأطلق لنا العنان فى فرارنا فمن خلفنا فارس وجماعته ، إن أدركونا أهلكونا أو أسرونا ، ولست أنت وأمثالك بقادرين على أن تنالوا منهم وطراً ، فدعنا نمعن فى المسير ، واستمع لما أقصه عليك من أمرنا ،

ثم ساروا جميعهم ، ومالك يقص قصته ، وعمارة يمعن فى الاستماع له .

وبينما هم جادون فى المسير ، وغارقون فى الحديث ، إذ أقبل عليهم من جانب الطريق جماعة من العبيد ، يقدمهم طارقة الزمان ، فعرفهم مالك وأخذه الغم من كل جانب ، فاستسلم وقال :

لقد لحقنا من فررنا منهم ، ولا منجاة لنا إلا أن نعتذر ونستسلم ،

فهبت عبلة من وجومها ، وأشارت إلى عمارة قائلة :

يابن العم ، لقد عرفت أن عنترة ما كان يرضى لنا هذه الذلة لو كان حيًّا ، فأرنا اليوم شجاعتك ، واكشف عنا هذا البلاء ، فالتهبت نفسه حماسة وغيرة وقال :

سأريك من ألوان الفروسية ما لم يخطر لك على بال ، ولا تخافى من هؤلاء العبيد ذلاً ولا عطباً ، وسأتركهم طعاماً لوحش هذه الفلاة إلا من فر منهم وهرب .

وخاض عمارة غمرات القتال ، فما هى إلا جولة ، أبعد ما تكون عن العنف والشدة ، حتى كان أسيراً موثقاً ، ولم يكن نصيب مالك ومن معه بأقل من نصيب عمارة ، فأمر طارقة الزمان خمسة من عبيده أن يسبقوه بعبلة إلى وادى المناهل ، ويضربوا لها خيمة تحتجب فيها ، وهم حراس من حولها ، إلى أن يلحق بهم فى غدهم ، فصدعوا بأمره ، وما كادوا ينزلون بذلك الوادى ، حتى أقبل أنت يا عنترة ، فقتل من الخمسة من قتل ، وهرب من هرب ، وجلست عبلة تقص عليه هذا القصص .

١١

أحست عبلة حياة جديدة، تتنسم فيها برد النعيم، بعد طول الشقاء الأليم، واطمأنت إلى مصالحة الدهر بلقاء عنترة ، وألقت فى صدره ، ما أصابها وأصاب أهلها فى غيبته ، وما حل بهم من النوائب ، بعد أن جاءهم نعيُه، ونبأ وفاته وفقده ، ثم تحرك فى صدرها الإشفاق عليه ، وعجبها من هذا اللقاء ، بعد اليأس وانقطاع حبل الرجاء ، فسرد على مسامعها ما وقع له من يوم أن غادر الديار فى طلب النوق العصفورية ، إلى أن عثر بها فى هذا المكان، وأخذها من يدها ، فأراها ما أحضر معه من أموال وجواهر ، وجمالات صفر ، وخيل وغلمان ، وجوار حسان ، فعجبت مما رأت ، وقالت :

أهذا كله لك وحدك ، أم يشركك فيه أحد ممن معك ؟ فقال :

أحضره عنترة لعبلة ، ليكون ملكاً لها وحدها ، ولتكون الحاكمة فيه بأمرها . فخفق قلبها خفقان الراحة والنعيم ، والعز المقيم .

وكان طارقة الزمان سائراً إلى عبلة ، ليحظى بالقرب منها ، ففاجأه عبيده الثلاثة الهاربون ، يتحاملون على أنفسهم فزعاً ورعباً ، وما كاد يلقى نظرة عليهم حتى علم أن فى الأمر شيئاً ، فسألهم :

ما خطبُكم ؟ وما الذى جاء بكم ؟ فقالوا :

دهمنا فى مكاننا عبد أسود ، هو الموت أو أشد ، فقتل اثنين منا ، ولولا أننا اعتصمنا بالهرب ، لكنا الآن طعاماً للطيور .

وكان عنترة قد تحرك بعبيده وأمواله إلى الديار ، واستعد لملاقاة طارقة الزمان فى طريقه ، وتخليص مالك وأبناء عمومته ، فوكل عبلة إلى من يحرسها ويحميها ، إذا ما حمى وطيس القتال ، وابتدر الأعداء بالحرب والنزال .

والتقى طارق بعنترة التقاء المرء بأجله ، فجندله عنترة صريعاً ، ومزق من معه تمزيقاً ، وانجلت المعركة عن مغانم كثيرة ، وتخليص مالك وعمارة ومن معهما من بنى عبس ، فجلسوا يستريحون من التعب ، ويشكرون لعنترة صنيعه بهم ، وأن أعاد شباب الحياة إلى قلوبهم ، ونور الدنيا فى عيونهم ، وتقدم إليه عمه مالك وجعل يلقى إليه معاذيره ، وعمارة يحمد له

مروءته ، ويعترف له بفضله ، ويهنئه بسلامة عودته ، ورجوع الحق إلى صاحبه ، فابتسم لهم عنترة ابتسامة من يعرف أن الغدر لا يفارق أهله ، إلا فى مواطن العجز والمسكنة .

ثم جعل يقص على عمه ما لقيه فى سفره ، وما غنمه من الهدايا والمغانم ، وجمع المستمعين فى دهشة عظيمة ، وعمارة ومن على شاكلته ممن يضمرون البغض لعنترة، تجيش صدورهم غيظاً وحسرة ، ويودُّون أن تهوى بهم الريح فى مكان سحيق ، ولا يدخلوا ديارهم على هذه الحال من الخزى والمذلة .

١٢

وأتيحت فرصة لمالك وابنه عمرو ، وعمارة الوهاب ، وعروة بن الورد، فاجتمعوا وشرعوا يتحدثون ، فقال عمرو لأبيه :

كيف يطيب لنا المقام فى بنى عبس ، بعد هذا النكال الذى حل بنا، والسخط الذى صب علينا ، وإذا كنا لم نستطع مقاماً ، وعنترة فى علم الناس قد مات بتدبيرنا ومِحَالنا، فمن الوضاعة التى لا نرتضيها أن نعيش بينهم فى جو من شماتة من يحبونه ، وسخط من يعطفون عليه ، وقد زاد الآن فى نفوسهم إعظاماً ومحبة ، بما أحضر من الأموال والغلمان والنوق العصفورية ،

وبما كشف عنا من غمة الأسر والمذلة وأرى أن نفر بأنفسنا إلى ديار سحيقة ، نعيش فيها كما قدِّر لنا حتى يجيء أجلنا .

عزَّز عمارة هذا القول ، وعرض عليهم أن يحتالوا لاغتياله ، ولا يمكنوه من العودة بهم إلى دياره ، فقال مالك :

لقد علمتم ما فعلنا بعنترة ، وكيف كتب علينا الفشل كلما احتلنا لاغتياله ، ويبدولى أن أمرنا معه قد خرج عن طاقتنا ، وقد غُمَّ علىَّ الأمر فلا أدرى فيه وجه الصواب ، وخير لنا أن نكظم غيظنا ، ونتدرع بالصبر والتجلد ، فعسى أن يكون القدر قد كتب لنا بعد هذا العسر يسرا .

كان هذا يجرى فى الخفاء ، وعنترة يهدى إلى عبلة شيئاً مما أحضره من فاخر الثياب وثمين الجواهر ، فألبسها حلة فارسية ، لم تلبسها فتاة عربية ، وطوق عنقها بهالة من العقود التى تشع نوراً وبهجة ، وعقد على رأسها تاجاً كسرويًّا ، تتطامن لجماله وجلاله الرءوس ، ثم سلم عنترة عبلة إلى أبيها قائلاً :

هذه ابنتك يا عمى ، ومعها ما أهديته إليها من ذهب وفضة ، وحلى وزينة ، وقد وكلت أمرى معها إلى ضميرك ومروءتك ، فافعل بى وبها ما تشاء ؛ فشكر له عمه عالى مروءته ، وإن كان يخفى له البغض والكراهية .

وتفقد عنترة الجماعة ، فلم يجد بينهم عمارة ، فقال مالك :

لعله سبقنا إلى الديار ليذيع بين الأحياء بشرى قدومك ؛ فقال عنترة :

لا إخاله فاعلاً ذلك ، ولو أن الأمر كما تقول لرأينا طلائع الملك زهير قد خفت إلى استقبالنا ، ولعل فى الأمر شيئاً سيظهره الغيب ، فليرتقب إنى معه من المرتقبين .

ولما دنوا من الديار طلب مالك إلى عنترة أن يأذن له فى سبقهم إلى أحياء بنى عبس ، ويكون أول من يزف إليهم بشرى عودته ، فيجد منها ما يخفف عنه وطأة السخط الماضى ، فقال عنترة : لك ذلك ، ومعك عمرو ابنك ، وعروة ابن الورد ، وعبلة ابنتك ، فشكر مالك له ذلك ، ولكنه أبى أن يأخذ عبلة معه ، ورجاه أن يتركها عنده ، لتحضر إلى الديار فى صحبته ، فلم ير عنترة فى ذلك بأساً .

وسار مالك وابنه وعروة بن الورد ، وخلا لهم جو الحفيظة والحقد ، فجعلوا يندبون حظهم العاثر ، وينكرون على القدر هذا التوفيق الذى حالف عنترة ، وقرروا أن الموت خير لهم وأبقى من ذلك الهوان الذى يحل بهم إذا ما تزوج عنترة عبلة ، وعاشا فى ظلال من إعزاز الأحياء لهما ، والافتخار بهما ، فقال مالك : لا تأسوا على حالكم ، فإما فرق القدر بينهما ، وإما قتلت عبلة وفررت من بلائها ، ولو اطلعت على الغيب لوأدتها قبل أن تجر هذه المصائب علينا .

ونزل مالك فى بيت شداد أخيه ، فألفاه فى سكون المقبرة ، وعبوس اليوم الغائم ، وكان اللقاء فاتراً ، والعود فى نفس شداد غير حميد .

وعرف مالك أن هذا الوجوم الضارب على بيت أخيه ، من صنع يديه ، فابتسم ابتسامة طويلة ، ونظر إلى أخيه نظرة تتلألأ سروراً ، وابتدره بقوله : جئتك بشيراً ، فقد حضر ابنك عنترة فى موكب من الغلمان والجوارى والمغانم يفوق مواكب الملوك عزة وثروة ، فقال شداد :

دع عنك يا مالك عبث الحساد ، وشماتة الأحقاد ، فقال :

وعبلة فى ركبه ، خلفتها معه ، فقد وهبتها له ، على أن تكون زوجه ، ولا يشرق الصباح علينا بنوره حتى يشرق علينا بركبه . فقال شداد :

أحق ما تقول ؟ ! فقال مالك :

واللات والعزى إنه لحق مثل ما أنك ترانى . فماج المنزل بهجة وفرحاً وبدت أرجاؤه مشرقة وضاءة .

وذاع الخبر فى الأحياء ذيوع ضوء الشمس فى الأجواء ، فكسا كل حى من الجمال حلة ، وعلا كل رجل وامرأة من النعيم والفرح نضرة ، وحاكى الغلمان آباءهم فى مظاهر الانشراح والبهجة ، وسالت الأحياء والطرق بهم ، هذا يثب ، وذاك يجرى ، وذلك يغنى ، وتجاوبت الزغاريد ، وخفت الجماعات والوفود إلى بيت الملك زهير ، فقال لرجاله :

أسمع هرجاً ينم عن حادث لا يضير ، وأذن لهم أن يأتوه بنبئه ، فقالوا : قدم عنترة فى مغانم كثيرة ، فابتهجت الأحياء بقدومه ، وهبت الجماعات لاستقباله ؛ فانشرح صدره وقال :

وعلينا أن نقاسم الناس شعورهم ، ونقدمهم فى لقائه ، والحفاوة به .

وخرج فى جنده وعشيرته يقدم قومه إلى الخلاء ، يتدافعون تدافع الموج ، مخلفين ديارهم خالية من الرجال والفتيان ، لايعمرها إلا الشيوخ الضعفاء ، والقواعد من النساء وكل حدث من ذكر وأنثى .

وكان عنترة فرحاً بانتصاره على الحقد الذى طالما نبحه ، متوقعاً خروج الملك زهير فى جنده إلى لقائه ، فقال لعبلة : لقد أشرفنا على الديار ، وأمِنا من وعثاء الأسفار ، ونوازل الأقدار ، وأرى أن أسبقكم إلى لقاء المليك ، حتى تلحقونى من خلفى ، فذلك أكرم بى . ووصى بها عبيده ، وانفلت من بينهم على جواده ، حتى وافى مليكه وقومه ، فألفى من مظاهر الحفاوة به ، ما كبت أعداءه ، الذين طالما حسدوه وتآمروا على قتله ، وبدا السرور به أصواتاً فى الفضاء ، وألحاناً فى الغناء ، وتصفيقاً فى الأكف ، وخفقاناً فى الأعلام ، ونغماً فى المزاهر ، وبعد أن سلم وحيا ، جلس إلى الملك زهير ، وجعل يقص عليه حديث رحلته ، وما لقيه فيها من عنت الأيام ، وصروف الحوادث ، وكيف احتمل البلاء المبين ، بشخصية صلبة لا تلين ، تحت ضغط الزمن ووطأته ؛ وما كاد ينتهى من حديثه ، حتى أقبلت عبيده ، وحضرت مغانمه ، فاشرأبت لها الأعناق ، وشخصت الأبصار ، واهتزت القلوب فى الصدور فرحاً وعجباً ، فاستأذن عنترة المليك أن يشرف على عبيده ، ويُريه بدائع ما غنم ، فأذن له .

وعرض عنترة فيما عرض أنماطاً حساناً من الجوارى ، وأخلاطاً شداداً من العبيد ، بأيديهم سيوفهم ورماحهم ، وجمالا وخيلا ، تحمل صناديق مفعمة بالنفائس والأموال ، ونوقاً عصفورية أخذت بألباب العرب ، فزاد عنترة فى نفوسهم محبة وتكريماً ، وأمر الملك أن تسير القوافل إلى الديار ، وأحل لهم ما يشاءون من مظاهر الفرح والابتهاج .

١٣

وهناك أهدى عنترة إلى المليك عشرة جمال وعشرة جياد ، عليها صناديقها ، ومعها عبيدها وجواريها ، فقبل هديته شاكراً مغتبطاً .

ثم تناول ما أحضره ، فوزعه على رجال الحى ونسائه ، حتى استنفد ما عنده ، ماعدا النوق العصفورية ، فقد استمسك بها ليقدمها مهراً لعبلة .

وجاء عمرو بن مالك إلى هودج أخته عبلة ، وناداها أن تنزل إلى مليكها وعشيرتها ، وتقاسمهم هذه الغبطة الشاملة ، فلم يجبه أحد ، وكرر النداء ، فلم يكن حظه من الإجابة أكثر من حظه فى النداء الأول ، ففتح الهودج وأطل فيه فلم يجد أحداً ، فصاح :

لقد تفقدت أختى فى هودجها فلم أجدها . وطار هذا النبأ إلى عنترة ، فسأل العبيد على الفور فلم يقف منهم على خبر ، وقالوا :

لا ندرى أين ذهبت ، ولم يخطر ببالنا أنها ليست فى هودجها . ولما نبأوا الملك بغياب عبلة واختفائها ، طمأن عنترة ، وكتب على نفسه أن يحضرها أنى كانت .

وساد الناس وجوم ، وعمتهم الحيرة ، وقالوا :

لقد أعجلنا الهم لفقد عبلة ، وتساءلوا فى دهشة وحيرة :

أين عبلة ؟ وكيف افتقدتها القافلة ؟ وكيف خرجت من بينهم وهم لا يشعرون ؟ ذلك هودجها يتفقدونها فيه ، فلا يجدونها ، إن فى الأمر سراً لا ينبغى السكوت عليه .

وأمر زهير أن يؤذن فى الناس بالانصراف ، وأن يركنوا إلى الاطمئنان فقد عقد العزم على إحضارها ، ولو كان بينه وبينها سدّ يأجُوج ومأجوج ، فانصرفوا وأفئدتهم هواء ، وذهب عنترة إلى داره ، ورد إلى أمه بلقياه شبابها ، وأعاد إليها الحياة أنضر ما كانت ، وإن شابها شىء من الكدر لفقد عبلة ، وحزن عنترة من أجله .

وكان عروة بن الورد عقب حضوره مع مالك وابنه ، قد ذهب إلى الربيع بن زياد ، وأخبره ما فعله عنترة بهم من معروف ، وأنه حرر رقابهم من أسر طارقة الزمان ، ولكنهم فقدوا أخاه عمارة فى الظلام ، ولا يدرون له سبيلاً .

وحرك الحقد وساوسه فى صدر الربيع وقال : لئن صدق حدسى ، فإن

عنترة قاتل أخى ولكن القوم لا يعرفون ، فلأطالب زهيراً نفسه بدمه ، إن لم يسلمنى فيه عنترة .

وفى الصباح وفد الربيع فى عشيرته ومن يلوذ به ، إلى زهير فى داره ، وقالوا :

إن عمارة قد قتله عنترة ، فإن لم تسلمه إلينا نفعل به ما نشاء ، غادرنا الديار ، وأخذنا فى طلب الثأر ، وإن فنينا جميعنا فى سبيله ، فقال زهير :

وإذا كان قد قتل أخاكم ، فهل قتل عبلة أيضاً ؟ إنه الآن فى شغل شاغل بفقدها ، فأرجئوا الكلام فى أمر أخيكم ، حتى يعثر عليها ، أو ييئس من العثور بها ، وحينئذ تتقدمون إلى طلبه بالبرهان والحجة فإن أقمتم عليه البينة ، فحلال لكم دمه ، فقال الربيع :

وأن أثبتنا بالحجة قتله لأخينا ، فقتلنا له فيه لا يرضينا ، لأنه عبد وابن أمة ، وعمارة سيد فى قومه ، وابن حرة كريمة .

ثم استأذن فى الانصراف فأذن له ، وقام ومن معه غضبان أسفاً ، والملك زهير يعلم أنهم لعنترة ظالمون ، وأنه برىء من فقد عمارة ، براءة لا ريب فيها .

١٤

هذا ركب عبلة قد قطع فى المسير ليلته إلا أقلّها ، فألزمهم تعب السفر والحاجة إلى النوم ، أن يحطوا رحالهم فى سبيلهم حتى يستريحوا ، ولكن النوم ألحّ عليهم حتى غلبهم ، فانتهزت عبلة سكون الركب ونومه ،

وانسلّت من هودجها إلى الخلاء لتقضى حاجة لها ، وأبعدت فى السير حتى تختفى عن سمع الركب وبصره ، ولما قضت حاجتها ، وسارت إلى ركبها ، ضلت السبيل إليه ، فجعلت تخبط فى البيداء على غير وجه ، فى نشاط من السير وجدته ، ظانة أنها راكبة سمتها إليه ، وأنها لاحقة به ، إذا كان قد استيقظ واستأنف المسير إلى الديار ، ولم تكن تعلم أنها استدبرته حيناً ، والتوت عنه حيناً آخر ، بينما انتبه من إغفاءته ، وواصل السير إلى ديار بنى عبس ، وهو على يقين أنها لم تفارقْ هودجها .

وكان عمارة قد فارق هذا الركب فى الظلام ، هائماً على وجهه ، لأنه لم يحتمل أن يسير فى ركاب عنترة ، الذى أسبغ عليه نعمته ، ففك رقبته من أسره ، وما كاد يغادر الركب حتى تحرك لاعج الشوق فى صدره ، فأصرّ على أن يعود إليه ، ويحتال لأخذ عبلة ، والفرار بها إلى ديار بنى قحطان ، مستجيراً بملك بنى طيء ، ملجم بن حنظلة ، فاستحث جواده هنا وهناك ، محاولا أن يقتفى آثار الركب حتى يلحق به .

وكانت الشمس قد أطلت على الأنام ، فلمح على نورها عبلة مشرقة فى حليتها وحلاها ، تنم مشيتها عما ألم بها من حزن وحَيرْة ، وماهى إلا لفتة الجيد حتى كان بجوارها ، فقال :

عمى صباحاً أيتها الفتاة المشرقة ، فقالت : عِمْ صباحاً يابن العمومة ، فقال :

ألك حاجة فى هذا المكان ؟ فقالت :

ضللت السبيل إلى الركب ، وأطلب أن ألحق به ، فقال :

لعلك تقصدين ركب عنترة ؟ فقالت :

نعم ، فقال :

ألست واجدة فى عمارة ، ما يغنيك عن عنترة وركبه ؟ فقالت :

نعم ، وهل يعيش الجسم فى غنى عن روحه ؟ ! فقال :

ولكنك الآن فى متاهة مشتبهة المسالك ، وليس معك رائد ولا دليل ، فقالت :

رائدى إليه قلبى ، ودليلى إلى مكانه حِسِّى ومشاعرى ؛ فكظم غيظه من إجابتها وقال :

ولكنى إن تركتك وشأنك فلن آمن عليك من ضوارى الوحوش ، فقالت :

ما دمت فى مأمن من بَغْىِ الإنسان وغدره فلا خوف علىّ ، فقال :

أتظنين أنك مفلتة من يدى ؟ فقالت :

نعم ، إن اعتصمت أنت بالحق ، وألزمت نفسك الوفاء والمروءة ، فقال :

وهل أبْلَغُ من وفاء المرء لنفسه ؟ فقالت :

إذا لم يكن فى ذلك اعتداء على غيره ، أو تحكُّم فى حريته ، فإن كان ذلك فهو الاستبداد والأنانية ، فقال :

ليس فى الوقت متسع للجدال ، وليس الجدال بمغن عنك شيئاً ، ثم

أردفها خلفه على جواده ، وأرخى له عنانه ، إلى ديار بنى قحطان .

* * *

ونزل بها على غدير فى طريقه ، للاستجمام والراحة ، وبينما هما كذلك إذ طلع عليهم فرسان على جيادهم ، يربُون على المائتين عدًّا ، وكانوا من بنى طيئ تحت إمرة مفرج بن همام ، فقال لفرسانه :

لا إخال هذه الفتاة إلا من بنات الملوك ، سرقها هذا الوغد ، وفر بها إلى هذا المكان ، فاستلُّوها من يده ، وقيدوه فى الأغلال ، وعودوا بنا إلى الديار ، وهناك نتبين أمرهما ؛ فصدع الفرسان بما أمروا ، وجَدُّوا فى المسير ، حتى قرت بهم مواطنهم وديارهم ، وباتوا ليلتهم .

ولما أشرق الصباح ، أحضر مفرج بن همام عمارة بين يديه ، وعرف منه نسبه وما وقع له ، فقال :

يبدو لى أنك وغد لئيم ، إذ قابلت النعمة بالكفران ، وخلاصك من الأسر بالغدر والطغيان ، وسأذيقك العذاب الهون ، حتى تفتدى بما أطلب من الأموال ، فقال :

أرسل إلى أخى الربيع بن زياد عبداً من عبيدك ، برسالة من عندك ، تطلب فيها ماتشاء من الفداء ، فستجده لديك حاضراً ؛ فأنفذ ابن همام عبده إلى الربيع بما أراد .

أما عبلة فلم يستطع ابن همام أن يفتح مغاليق قلبها ، بما قدّم لها من

ألوان الرفق والتلطف ، فأشارت عليه أمه أن يُذِل كبرياءها بالخدمة ، حتى تسلس له القياد ، وتقع من أمره على ما يشاء . فاستحسن رأيها ، ورمى بعبلة فى غمار الخدم ، تكنس وتحتطب وترعى الغنم وتؤدى أحقر الأعمال وأخسها .

* * *

وناول عبد ابن همام كتابه الربيع بن زياد ، ففضّه وقرأه ، وأمر أن يكون العبد مع عبيده ، حتى يبعثه برسالة يضمنها ما يشاء ، ثم جمع أهله ، وذوى الرأى من عشيرته ، وقرأ عليهم جواب ابن همام ، وطلب إليهم أن يدلوا بآرائهم ، ويبرموا فى هذا الكتاب أمرهم ، فقالوا :

الأمر لك فانظر ماذا تأمر ، فقال :

أرى العار والشّنار فى افتداء أخينا بالمال ، ونحن أولو قوة وأولو بأس شديد ، وقد علمتم أنا اتهمنا عنترة بقتله ، وحمّلنا الملك زهير دمه ، وسبيلنا إذ ذاك أن ندع عبد ابن همام عندنا رهينة ، وإن كان لا يساوى قلامة ظفر من عمارة ، وننفر إليه برجالنا ، ونستخلص بحد السيوف وأسنة الرماح أخانا ، ثم نرد إليه عبده تكرّماً ومنّة ، فقالوا : حسناً رأيت .

وساروا صباح غدهم فى مائتى فارس ، يخبّون فى الحديد على جيادهم ، وعروة بن الورد من بينهم ، إلى ديار ابن همام ، ولما وصلوا غدير الجرعة نزلوا به ، ليأخذوا قسطهم من الراحة ، وبعد أن اطمأنوا وهموا أن يسيروا قال الربيع :

لقد بانت لى حيلة ، تكفل لنا النصر المؤزر ، فقالوا :

هات ما عندك ، فقال :

نبعث أحدنا إلى ابن همام ، ليخبره أنه أتى فى عشرة من فرسان بنى عبس ، ومعهم فداء عمارة ، حتى دخلنا أرضك فى وادى الجرعة ، فطلع علينا جماعة نهبت الأموال ، وأسرت الفرسان ، فاخرج فى فرسانك إليهم ، واسترد الفداء ، وخلص الفرسان ، فمن العار الذى لا ترضاه لنفسك ، أن تنهب أموال قد منا بها إليك ، ويؤسر رجال يحملون لك الفداء ، فى أرضك وحماك ؛ فإذا ما نفر ابن همام فى جماعته ، وجاء إلى هذا الوادى ، نكون قد وزعنا أنفسنا فى ثلاث جهات ، فإذا ما توسطنا هجمنا عليه وعلى من معه ، دفعة واحدة ، وسقناهم إلى ديارنا أسرى ، وكانوا هم الفداء لأخينا ، فقالوا :

نعم ما رأيت ! ووقع اختيارهم على أنس الجواد ، وهو أخو الربيع بن زياد ، وكان ذا هيبة ووقار ، معروفاً بطلاقة اللسان ، وقوة الجنان .

ولما أنبأه الرسالة ، عظم على ابن همام أن يحدث هذا فى أرضه ، وعصفت فى رأسه رياح النخوة ، وأقسم أن يخرج إليهم وحده ، ولا يصحبه أحد من جنده ، وبينما هو سائر ، وعلى وجهه سمات الغضب ، قابلته سلمى أم ناقد بن الجلاح ، الذى قتله عنترة ، وكانت عجوزاً ذات مكر ودهاء ، فسألته :

ما باله ؟ فأنبأها الخبر ، فقالت :

لئن صدق ظنى ، فذلك مكر أعدائك وغدرهم ، والوقيعة بك وبمن معك ، وسيكون مصيرك الأسر ، ليفتدى الأعداء أخاهم بك ، وتضيع عليك الفدية ، وفى ذلك العار والذلة ، والرأى عندى أن تأسر هذا الرسول ، وتخرج إلى من أرسلوه بجندك فتوقع بهم الوبال ، وتسوقهم إلى ديارك أسرى غانماً مظفراً ، فنزل على رأيها ، وأودع الرسول أسيراً مع عمارة ، وتأهب للغزو والقتال .

وزجّ بأنس مع أخيه عمارة فى معتقله ، فتلقاه فى غمّ ودهشة ، وسأله عن إخوته وقومه ، وكيف وقع فى يد ابن همام ، وحلّ عليه غضبه وأسره ، فأخبره ما كان من تدبير أخيه لإنقاذه ، وما كان من العجوز ، من إفساد ذلك التدبير ، فقال :

ضاعت من يدى عبلة ، وحظى بها عنترة ؛ فأجابه أنس :

لا تزال مأخوذ اللب ، حتّى فى أحرج المواقف ، كأنك من غير العرب ، لا يجرى دمك بالنخوة ، ولا تزال متشبثاً بخسيس الأمر ووضيعه ، ولم تردعك الأيام ونوازلها ، وحل بأهلك البلاء من أجل سخمك ، والتشبث بفتاة ، لها بين بنات العرب لداتها ، وقد يفقنها جمالا وعقلا ، وحسباً ونسباً ، فقال :

إن بغيتى فى حياتى أن أحظى بعبلة ولو شهراً واحداً ؛ فجذبه أخوه وقال :

لا حظيت بها يوماً ، ولا كتب لك الخلاص من الشقاء ، حتّى تعود

إليك رجولتك ، وتنسى التشبث بصغير الأمور وحقيرها ، وقيّضت لإخوتك وعشيرتك السلامة ؛ ثم انزوى أنس فى معتقله ، مترقباً ما يحلّ به .

١٥

قام الربيع بن زياد بعد وفادة أنس أخيه ، بتنفيذ محاله ، فجعل جزءاً من جنده فى مكمن على اليمين ، وجزءاً آخر فى مكمن على الشمال ، وجعل عشرة فرسان على جيادهم على وضح الطريق ، ووصاهم أن يستقبلوا ابن همام بالشكوى ، والاستنجاد به ، على هؤلاء الفرسان الذين نهبوا أموال الفداء ، ولاذوا بما غنموا آمنين .

وأقبل ابن همام فى مائتى فارس ، كأنهم الجبال وأشدّ خلقاً ، فأسرع الفرسان العشرة إليه ، يجأرون بالشكوى ، ولكنه فجأهم بالضرب ، وأصم أذنيه عما يقولون ، فجرح منهم سبعة وفر ثلاثة هاربين ، فتبعهم ابن همام بجنده ، وما كاد يطلع على المكامن حتّى برز إليه من فيها بسيوفهم ورماحهم ، وهناك التقى الفريقان ، واقتتلت الطائفتان ، فهوت الرءوس ، وتناثرت الأجسام ، وسالت الدماء ، فاعتصم بنو زياد برءوس الجبال ، فزعاً ورعباً ، وأسر قيس أخو الربيع ، وعروة بن الورد ، وانجلت المعركة عن انتصار ابن همام ، وكان الليل قد آذن بالقدوم ، فأمر ابن همام

جماعته ، أن يثبتوا فى هذا المكان حتّى يشرق الصباح بنوره ، ثم يعودوا إلى ديارهم ظافرين .

واجتمع الربيع بمن معه ينظرون ماذا يفعلون : أيولون الأدبار ، أم يُشْعلون فى الصباح نار الحرب والنضال ؟ فقال بعضهم :

أيها الأمير ، لقد حازنا ابن همام عن الماء ، وألحّ العطش بأحشائنا وأحشاء خيولنا ، وأصبحنا لذلك لا نستطيع رواحاً ، ولا نستطيع قتالاً ، ولا بأس من أن نسلم نفسنا إليه ، على أن يمنحنا الأمان ، حتّى نفتدى بما يشاء من الإبل والأموال ، فقال الربيع :

إن المضطر يركب الصعب وأنفه راغم ، وما دمنا قد أحيط بنا ، فلا بأس علينا أن نركن إلى التسليم ، على أن يكون جِسْرًا نَعْبُرُه ، إلى شاطئ السلامة ، وهناك نعمل على أن ننجُوَ بأنفسنا ، ثم يكون بعد ذلك ما يكون.

وأرسل إلى ابن همام رسولاً يبلغه استسلامهم وحاجتهم إلى الماء ، فجزّ ناصية الرسول وقال :

بلغ جماعتك أنى مصر على جز نواصيهم إن رضيت بتسريحهم وسقيهم فلن أكرم قوماً عرفتهم بالغدر والخيانة .

ولما رجع إلى الربيع مجزوز الناصية ، وبلغهم رسالة ابن همام ، انتفض الربيع ومن معه ، من الفرسان ، وقالوا :

تجز رقابنا ، ولا تجز نواصينا ، ونموت تحت بريق السيوف ، ولا

نعيش فى أغلال المذلة والهوان ، وهبّوا من فورهم لقتاله ، وإن كان الموت أقرب إليهم من الحياة ، أما الرسول الذى جزت ناصيته فقد ودعهم إلى الديار .

وما خطوا إلى ابن همام بضع خطوات ، حتّى رأوه طالعاً بجنوده عليهم من كل صوب ، فلم يغْن عنهم استبسالهم فى القتال شيئاً ، وبعد أن هلك كثير من فرسانهم ، كانوا يساقون أسرى إلى ديار ابن همام ، ففرح بنصره أهله وعشيرته ، وعامة قبيلته ، وكان أشدهم فرحاً سلمى أم ناقد بن الجلاح .

ولندعْهم الآن فى أسرهم ، لنلتقى بعنترة ، ونقف على أمره ، بعد فقده عبلة .

١٦

كلف عنترة أخاه شيبوباً بالبحث عن عبلة ، وترك له حرية التصرف بحيله ودهائه ، فاختفى شيبوب عنه أياماً ، وعنترة يرتقبه فى هم وقلق ، ولما حضر من غيبته ، جلس إلى أخيه عنترة وقال :

أحطت بما لم يُحِط به أحد ، وجئتك من حيلة ابن همام بنبأ عبلة ، فقال :

قل وأوجز ، فقال :

ما زال المسير يرمينى من مكان إلى مكان ، حتّى كنت فى حلة مفرج بن همام من ديار بنى طيء ، فنزلت ضيفاً على أحد رجالهم ، وكان

جاراً لابن همام هذا ، فسمعت فى سكون الليل ، وهجعة الناس ، بكاء عبلة ، واستنجادها بعنترة ، فى حال تذيب القلوب الجامدة ، فكظمت معرفتى إياها ، ولما طلعت الشمس وجلسنا فى دار الضيافة قلت له :

يا أخا العرب ! لقد أقض مضجعى بكاء فتاة ، قطعت به ليلتها ،ولا إخالها إلا امرأة حدثة السن ، فقدت وحيدها أو أخاها ، فقال :

لم تكن امرأة ، ولكنها فتاة تدعى عبلة ، بنت مالك بن قراد ؛ وقص على قصة أسرها ، وأسر عمارة ، وانتظار الفداء من بنى زياد ، ولم يبد منى إذ ذاك ما يشم منه معرفتها ، لأنى أخبرته أول نزولى عنده ، أنى من بنى جهينة ، ثم سلمت عليه شاكراً له حسن ضيافته ، واويت وجهى إليك ، وقد رأيت فى الطريق الربيع بن زياد فى فرسانه ورجاله ، ذاهبين لإنقاذ أخيهم عمارة ، فلم أشعرهم بى ، وأسرعت فى القدوم إليك ، فقال عنترة :

لا زلت بصدق الوفاء معروفاً ، وقام عنترة إلى الملك زهير فأخبره ، فقال زهير :

سأحمل عنك أعباء تخليص عبلة ، وعودتها إليك سالمة ، ولكن انتظر على بنى زياد حتى يلقوا عاقبة غدرهم وظلمهم ، فسيذيقهم رجال بنى طيء الأمرّين ، وعما قليل يصلك أنهم مصفّدون بقيود من حديد ، فشكر عنترة للمليك عظيم عطفه ، وجميل رعايته ، ثم حيا وانصرف .

وذهب عنترة بعد ذلك إلى مالك بن زهير ، وأنبأه ما عنده ، وقال :

لقد عولت على أن أخرج وحدى ، لإنقاذ عبلة من سجنها ، فإن نداءها له رنين فى أذنى ، ووجيب فى قلبى ، وكأن مسامعى بها وقرٌ إلا من هذا النداء . فقال مالك :

وسأخرج معك غداً فى مائتى فارس ، وعليك أن تحضر معنا أباها وأخاها ، وشداداً أباك ، ولا تحاول شيئاً غير ما سمعت ، فقال عنترة :

لا عدمتُ حنانك وعونك وفضلك .

* * *

خرج مالك بن زهير فى مائتى فارس ، يحرصون على الموت ، حرص الجبان على الحياة ، ومعه عنترة وأبوه ، وشيبوب أخوه ، وعمّاه زخمة الجواد ومالك ، وعمرو ابنه ، وبينما هم يسيرون لقيهم جميل العبسى ، الذى أطلق ابن همام سراحه ، بعد أن جز ناصيته ، فأخبرهم ما وقع لبنى زياد ، وأنهم الآن على ما يعتقد قتلى أو مأسورون ، فقال عنترة لمالك :

ما رأيت أشرف من هذه الغزوة ! ! فقال :

ولمَ ذلك ؟ فقال : تُوِّجت بقيادتك ، وهنئت فيها بلقيا عبلة ، وكرمت بتخليص بنى زياد ، وإن أضمروا لى حقداً وكيداً ، فقال مالك :

وستجدهم فى غيابات السجن مصفّدين ، أما الحقد فمركب العاجز الوَكِل ، وإن سيوفه لترد إلى أعناق أصحابه ، وكفاك وفاء وصدقاً ، ونبلاً وكرماً ، أن يدك لا تزال فوق أيديهم ، وأن معروفك لا ينقطع عنهم .

وكان ابن همام قد نفد صبره، واشتد شوقه إلى عبلة ، فصمم أن يمسها وإلا قتلها، وقتل بنى زياد معها ، فذهبت إلى عبله أمه ، وأنبأتها ما عزم عليه ابنها ، فقالت فى إباء وشمم :

لو ذبحنى وذبح من فى الأرض جميعاً ما مسّنى بَشَر، غير ابن عمى عنترة، فليفعل ابنك ما يشاء، وليعلم أن القدر من ورائه محيط ، فصكّت وجهها ، وكشفت لابنها حقيقة أمرها، فنادى فى جنده ، أن ينفذوا فيها وفى بنى زياد أمره .

وبينما هو فى ندائه ، وإصدار أمره ، إذ سمعوا جلبة تملأ الآفاق ، وتصك المسامع ، وتحرك القلوب الثابتة ، كأنها الصيحة أو الراجفة ، فقطعت عليه السبيل إلى ما يريد وقال :

تبينوا هذا الأمر ثم عوجوا لنفعل ما نشاء ، ولكن الرجفة كانت قد نزلت بالأحياء ، فأخذت السيوف تقطع خيوط الآجال ، والدماء تسيل على البطاح والرمال ، وكان عنترة وخمسون فارساً فى الميمنة ، ومالك وبقية الفرسان فى الميسرة ، فصاح ابن همام : أن ائتونى بجوادى ، حتى أكشف عنكم ضر الأعادى ، ولعل القدر ساق أسود الوجه عنترة ، ليكون فى بنى طيء قبره .

وكانت عبلة قد سمعت صيحة عنترة ، كأنها زئير الأسد ، فنبض قلبها نبضة انشراح وبهجة ، وقالت :

جاءك النذير يابن همام ، وحل بك الحمام ، وسكت عنى البكاء ، وثكلتك أمك ، لأن عدل الخالق قائم ، يحمى المظلوم ويترصد الظالم .

وكان عنترة قد اقتحم بفرسانه الأحياء ، ففتك فى كل مكان ، وجعل ظلها حروراً ، وأنسها وحشة ، فولوا هاربين ، وغادر من نجا بنفسه الديار ، وخلوها تنعى شبابها ورجالها .

ودخل شيبوب على عبلة ، فهمت للقائه ، وسألته :

أين عنترة ؟ ! فقال :

يحصد بسيفه الأعداء ، وقد كلفنى الحضور إليك ، لأنى على علم بمكانك ، وسنذهب معاً إليه ، فقد فرغ الآن من تطهير الأحياء وغادرها من كان فيها من رجال ونساء ، فقالت :

وابن همام ؟ فقال : اندس فى غمار الهاربين ، فقالت :

وأمه اللئيمة ؟ فقال : لا ظل لها فى هذه الديار .

وكان شيبوب وعبلة ، بين يدى عنترة ، فتألقت أعينهم سروراً ، وابتدرها بقوله :

عزيز علينا ما لاقيتِه من بؤس الأيام ، وعنت الظالمين من بنى الإنسان ، فقالت :

سلمت وعوفيت ، ولازلت حمىً لابنة عمك من كيد الزمان ، ثم سألها :

أين حلك وزينتك ؟ فقالت :

عند اللئيم ابن همام ، فأمر أخاه شيبوباً أن يذهب بها إلى داره ، لتأخذ ملابسها وحليّها ، وما شاءت من مال ومتاع .

وذهب عنترة إلى مالك بن زهير ومن معه ، فألفاه كالعُقاب بين الفرسان ، قد فرغوا من الفتك بالأعداء وتشريدهم ، حتى نزحوا هاربين ، فهنأه بفوزه المبين ، وسلامة عبلة ، ومن كان معها من بنى عبس وعدنان.

وبينما هم يتشاورون فى أمر الرحيل إلى أوطانهم ، إذ أقبل الربيع وجماعته ، مُهْطِعين مقنِعين ، أذلة خاسئين ، فقال لعنترة :

لقد ظلمناك بالتكبر عليك ، والكيد لك ، وكلما أمعنّا فى الحقد والخديعة ، أمعنت فى العفو والمروءة ، والوفاء والمحبة ، وقد بان فضلك علينا ، وإعزازك إيانا غير مرة فأنت الآن ولى نعمتنا ، وواهب الحياة لنا ، إذ خلصتنا من قتل كان منا قاب قوسين أو أدنى ، فلا زلت حصناً منيعاً لبنى عبس وعدنان ، وسلمت عبلة لك ، وهنئت بها مدى الزمان . فقال عنترة :

إنما هو واجب إنسانى أؤديه ، لا أريد منكم جزاء ولا شكوراً ، ولكل امرئ ما نوى ، وكل امرئ بما كسب رهين ، ثم قال لمالك :

لا حظّ لنا الآن فى البقاء ، ومن الخير لنا أن نعجل بالرحيل ، فقال مالك :

مادمنا قد أدركنا بغيتنا فلا بأس من التعجيل ؛ ثم طعموا واستراحوا ، وحملوا ما غنموا ، وأمّوا ديارهم .

١٧

كان ابن همام وهو فى سكرة من جبروته ، قد أرسل إلى القبائل ، لينظروا ما عزم عليه من صَلْب بنى زياد بعد قتلهم ، ليثأر لنفسه من نفور عبلة وامتناعها عليه ، ومكر بنى زياد به ، وفتك عنترة بكثير من رجاله فى المعارك الأولى الماضية ، من أمثال ناقد بن الجلاح وغيره ، فأقبل بنو جديلة وبنو نبهان فى جندهم يركضون ، وما أشرفوا على ديار بنى طيء حتى لقيهم ابن همام ، فأنبأهم ما فعله عنترة بهم ، فأصابهم من الغم والعطف على ابن همام وقومه ما أصابهم ، وقال جابر الرهيص : لانزلتُ عن جوادى ، ولا ألقيت سلاحى ، حتى قتلت هذا الأسود الزنيم ، وجعلت بنى عبس مثلا وذكرى بين القبائل أجمعين .

وسار بنو جديلة وبنو نبهان ، ومعهم ابن همام فى إثر بنى عبس وزياد ، حتى لحقوا بهم عند الغروب ، فى واد كانوا قد نزلوا به ليستريحوا ، ويبيتوا تلك الليلة فيه ، فقال ابن همام :

أرى أن نهجم عليهم فى الظلام ، فلا يشرق صباح الغد بضوئه ، حتى يكونوا فى هذا الوادى جثثاً مقتلة ، كالحجارة المتعثّرة ، فقال جابر الرهيص :

إن عددهم قليل ، ولو نزلنا على رأيك ، لتاهوا فى كثْرتنا ، وأضلتهم سيوفنا ، ونالوا من رجالنا وفرساننا ، ولكن تأخذ أنت ألف فارس ، وتقف بهم من أمامهم ، وأنا أبقى فى ألف فارس من خلفهم ، فإذا ما طلع النهار

أطبقت عليهم الطائفتان، وعركناهم عرك الرحى، وكانوا طعاماً لرماحنا وسيوفنا ، فقال ابن همام :

ذلك خير ما نفعله بهم .

أحس بنو عبس مجيء الأعداء ، فقالوا لعنترة :

لقد أقبل الأعداء فى عدد من الفوارس كالنجوم ، ولا إخالهم إلا هاجمين فى الظلام ، فيذبحوننا ذبح الأنعام ، فابتسم عنترة وقال : إن القلة يسترها الظلام، ويقيها ضرب الحسام، وإن كانوا على علم بأفانين القتال، فسيرتقبون النور ، حتى يتبينوا فيه أهداف رماحهم ، ومضارب سيوفهم ، فقال مالك :

أراهم قسموا أنفسهم قسمين ، وجعلوا منهم فريقين، ففريق تقدمنا إلى سبيلنا ومقصدنا ، وفريق ثبت من خلفنا ، فقال عنترة :

ليطبقوا علينا فى ضوء الصباح من الجهتين ، ويغزونا من الناحيتين ، فيضطرب دفاعنا ، ونكون زاداً لسيوفهم ورماحهم ، فمر جندك أن يأخذوا أهبتهم ، ولا ينزلوا عن ظهور جيادهم ، وسأريكم ما يحل بهم تلك الليلة ، وكيف يضيع عليهم كيدهم ومحالهم . فقال الربيع :

لا زلتَ لنا حصناً حصيناً منيعاً ، ومن الرأى أن نعرف ما عولت عليه، حتى نتبعه ، ونبذل الوسع والطاقة فى تنفيذه ، فقال :

تتفرقون من حول الفرقة الأمامية ، وتهجمون عليها من كل ناحية ، وتذهب قلة منكم إلى الطائفة الخلفية متفرقة مبعثرة ، وفى بدء الهجوم

تتصايحون : يا بنى عبس ، حتى تتحرك الطائفتان ، ويحسبوا أنكم فى وسطهم ، وبعد ذلك تكفون عن الصياح ، وتلوذون بجنبات الوادى ، وتتركونهم يضرب بعضهم بعضاً ، فى ظلام الليل ، حتى يقتلوا أنفسهم بسيوفهم ، ثم أجمعوا جموعكم ، وسيروا إلى ناحية دياركم مخلفين الأعداء من ورائكم ، يأكل بعضهم بعضاً .

ونجم إذ ذاك ناجم الغدر فى صدر عمارة ، فقال لعروة بن الورد :

هذه فرصة لقتل عنترة ، فإذا ترصدناه فى الظلام ، وخطفنا روحه بحد الحسام، كُفينا شره، ولا ينسب إلينا أحد قتله ، فأجابه عروة :

يبدو لى أنك طفل فى تفكيرك ، أو أصابك مس من العته والجنون ، أو طبع الحقد على عقلك ، فأصبحت كالأنعام أو أضل ! إن عنترة لو قتل الليلة ، ما رجع أحد منا إلى دياره ، فنجاتنا فى يده ، وفوزنا منوط بحياته ، وهل أوقعنا فى هذه المآزق إلا جهلك ، وسوء خلقك ، ودناءة غايتك، فاخسأ أيها الأحمق الجاهل ، وإلا أرديتك بسيفى هذا ، وأرحت قومك من ضلالك ، ولو سلك قومك سبيل الرشاد ، ورغبوا فى حياة آمنة هنيئة ، لحملوا عليك الآن حملة شنيعة ، تخرج منها طريح هذا الوادى ، وطعاماً لوحوشه وعقبانه . فانطوى عمارة فى ثوب من خزى وخجل .

ولماخدرت رءوس الأعداء ،وجرى فى أجسامهم دفء النعاس، هجم عنترة وصحبه متصايحين ، وأعمل فيهم سيفه ، حتى جعلهم كالموج

المضطرب ، ثم انسلوا من بينهم ، وولوا وجوههم شطر ديارهم ، مخلفين أعداءهم فى نار تتلظى من الحرب بينهم ، وما كفوا عن القتال ، حتى أبان لهم ضوء الصبح حقيقة الأمر ، فلم يروا بينهم أحداً من أعدائهم ، وعلموا أنهم قتلوا أنفسهم بسيوفهم وأيديهم ، وأن بنى عبس ومن معهم فروا سالمين .

° ° °

سلم الربيع وعمارة ومن معهما ، بما أبداه عنترة من بلاء عظيم ، ومن الأوضاع السليمة ، أن يكون له فى قلوبهم ما أصبح جديراً به من محبة وشكر وإجلال ، ولكن الضغينة أوقعتهم فى ضلال مبين ، فهم لا يعرفون إلا أنفسهم ، ولا يريدون لها إلا زينة الحياة الدنيا ، وعيونهم فى غطاء عن المعروف ، ومواطن شكر النعمة ، فخلَوْا بمالك وابنه عمرو وهم سائرون ، وأشاروا عليه أن يسلِّم أمر عبلة إلى شاس بن زهير ، يزوجها ممن يشاء ، فإذا ما ألح عنترة فى طلبها ، ولم يستجب شاس له ، ولجأ إلى الشدة والعنف ، عز على بيت الملك أن يخضع لعبد لا نسب له ، ففسد ما بينهما ، وكان نفيه أو حتفه ، فقال :

لكم ذلك ، ولكن يخيل إلىّ أنكم تدبرون والأقدار تضحك ، فكم ائتمرنا وكدنا ، وما لقينا إلا هواناً وذلا ، وما وجد عنترة إلا العاقبة الحسنى ، والفوز المبين .

وبينما هم سائرون إذ لقيتهم ثلة من الفرسان على رأسهم شاس بن زهير ،

أرسلها الملك خلف ابنه مالك وعنترة ، لتقف على مصيرهما ، ولتكون عوناً ومدداً ، إن كانوا فى حاجة إليها ، فقد طالت غيبتهما ، وقلق زهير من أجلهما .

وفرح شاس بعودة مالك أخيه فائزاً ، ولقائه سالماً ، وحط الجمعان رحالهما ليستريحا ، ثم يستأنفا سيرهما إلى ديارهما ، وفى فترة الراحة ذهب مالك إلى شاس ، وسلم إليه عبلة ، لتكون فى يده ، وتحت إمرته ، يزوجها ممن يشاء ، وليس لأبيها ولا لأحد من أقاربها دخل فيما يرى ، ولا اعتراض أو امتعاض مما يبرم فى أمر زواجها .

وبلغ ذلك عنترة ، فأسرع إلى مالك بن زهير وقال :

أرأيت كفر النعمة ، وخفر الذمة ؟ ! ! فقال مالك : هات ما عندك فأخبره ما فعله أبو عبلة بها ، تنفيذاً لتدبير الربيع وصحبه ، فقال :

فليسلم مالك ابنته إلى من يشاء من البشر ، فلن تكون إلا لك ، ولن يجرؤ أحد أن يمد إليها عينه ، فشكر له مروءته وانصرف .

ولما جاء الليل ، وأوى كل إلى مكانه ، قال عنترة لشيبوب أخيه وكان يلازمه ولا يفارقه .

لقد عزمت على العكوف فى البيت الحرام ، وأن أقطع ما بينى وبين الناس من صلة ، حتى لا أهلك نفسى أسفاً على ما هم عليه من حقد وضغينة ، وحسد وحفيظة ، وخبث ولؤم ، وعدوان وظلم ، فقال شيبوب :

وما يضيرك من الناس ما دمت وفيًّا للفضيلة ، فتحرر الرقاب ، وتعطى من حرم ، وتحمى الضعيف ، وتغيث الملهوف ؟ فقال :

إنما كرهت النظر إلى هؤلاء الذين يغمرهم معروفى ، ثم لا أجد منهم إلا الجحود والكفران ، كما أردت ألا أكون أداة هدم وتخريب ، وسبب فناء يحل بالقبائل ، فقال :

وكيف ذلك ، وما عهدناك إلا قوة تقيم المعوج ، وتؤمن الخائف ، وتكبت الجور ، وتغل يد الظالم ؟ فأخبره ما فعله مالك عمه ، وما عزم شاس عليه ، من احتجاز عبلة ، وما أصر مالك عليه ، من تنفيذ إرادة عنترة ، وإن قتل فى سبيله من قتل ، ثم قال :

وإن بقائى سيحدث فرقة بين أبناء الملك زهير الذى أوينا إلى ظلاله ، وقد يستشرى بينهم داء الفرقة ، فيقوض بناء الملك ، وربما امتدت نار الخلاف والقتال ، واشتد أوارها بين قبائل العرب ، فأكلت قوتهم ، وأبادت سطوتهم ، وصيرتهم هشيما تذروه الرياح .

ومن الوفاء لبيت الملك ألا أكون سبب خلاف يقوض بنيانه ، ولهذا رأيت أن أذهب إلى البيت الحرام ، وأعكف فيه ، على عزلة من الناس ، حتى يأتى الأجل ، ولا أحب أن يعلم أحد عنى ذلك ، فقال شيبوب :

وسأصحبك أنى تذهب فلن أستطيع البقاء من دونك ، فقال :

وليت عند الناس وفاءك ، وصدق أخوتك ! !

١٨

وفى سكون الليل ، وغفلة القوم ، انسل عنترة وشيبوب على جواديهما ، وسارا إلى البيت الحرام . وكان عجبهما أن وصلا ، دون أن يلقاهما أحد فى طريقهما ، ولم يريا حيواناً ولا وحشاً .

وقد رأى شيبوب من أخيه سُلُوًّا عن عبلة ، وعدم اهتمام ببعده عنها ، فسأله :

أراك فى غير اهتمام بعبلة ، وربما تزوجها عمارة فى غيبتك ، فقال :

سأسلو عنها ما دامت عانساً فى بيت أبيها ، فإن رامها أحد ، أهلكت فى سبيلها الحرث والنسل ، وتلك سبيلى فى حقن الدماء ، وإلا يحدث خلاف فى بيت الملك ، ويتطاير شرره بين القبائل ، ولعل القدر يجزينى لهذه التضحية خير الجزاء ، فقال شيبوب :

إن إيثارك الجماعة على نفسك ، دليلٌ على سمو همتك وشرف غايتك ولو أن ذوى المواهب من بنى الإنسان ينأون عن الأثرة وهوى النفس ، وينسون أنفسهم ومنافعهم الشخصية ، وما عسى أن يكون فى صدورهم من حسد أو حقد وضغينة ، لصلحت الجماعة وكانت حياتها ربيعاً ، كله صفاء وغنى وبهجة ، فقال عنترة :

إن الإنسانية لا تخلو فى أطوار حياتها من علقٍ يمتصُّ دمها ، ويعكر

عليها صفوها وأمنها ، فقال شيبوب :

ولكن النصر فى النهاية للحق وشرف الغاية ، فقال عنترة :

ذلك ما نرجو أن ينفرج عنه الغيب عاجلا .

وألح على شيبوب عجبُه من وحشة الطريق ، وخلوها من نازلٍ أو طارق أو عابر ، فقال لعنترة :

ما رأيتُ فى ترحالى طريقاً أقفر من الناس والحيوان مثل هذا الطريق ، فقال عنترة : ذلك خير لنا ، ما دمنا نبغى العزلة .

فقال أخوه وهو يحاوره :

ولكنى ألمح فى اعتزالك هذا تغييراً لمجرى حياتك المليئة بالمكارم ، ونصرة الضعيف ، وحماية الأهل والعشيرة ، ورد كيد الظالمين فى صدورهم ، وفى ذلك خسارة فادحة للجماعة الإنسانية ، وسُنة لو اتبعها أمثالُك لأقفر ربعُ الإنسانية من الخَيرْ ، فقال عنترة :

إنما اعتزلت مخافة ما أتوقعه من تفرقة فى بيت الملك الذى ندين له بالولاء والوفاء ، إلى أن يقيض القدر لنا سبيلا إلى تحقيق ما أريد ، من غير ضرر نخشاه ، فقال أخوه :

وما دامت هذه نيتك فالفوز مكفول لك .

وما فرغا من حوارهما ، وهما يسيران ، حتى سمعا عجوزاً تصيح نائحة باكية ؛ واذلاه ! ! أولادى ! ! بناتى ! ! رجالى ! ! وما هى إلا لمحةُ

الطرف حتى كان عنترة وأخوه عندها ، فسألها عن حالها ، فقالت :

نحن من كندة، ضاق علينا هذا العام رزقُنا ، فخرجنا إلى بنى الحارث ، نبتغى المقام عند بيت لنا ، فاعترض سبيلنا الصدام بن المهلب ، فى عشرة من فرسانه ، فقتل أولادى ، وجرح بعلى هذا ، وسبى بناتى الأبكار الثلاث ، وولّى وجهه شطر جبال بنى طيء ، وخلفنى على هذه الحال ، فأودع العجوز ومَنْ معها أخاه ، وفر على جواده ، إلى حيث يسير ابن المهلب ، حتى أدركه ، فقتل جماعته ، ورجع إلى العجوز بالبنات والأسلاب ، فكان فرحها عظيما ، وإن اختلط به شيء من الحزن على فقد أولادها ، وجرح بعلها .

وقضت مروءته أن يصحبهم إلى حيث يكونون فى أمن من العدوان ، وعرف زوج المرأة الشيخ من عنترة قصته ، فى أثناء سيرهم ، فعرض عليه بناته الثلاث ، يختار منهن من يشاء ، وكن على جانب عظيم من الجمال وحسن الخلقة ، فقال عنترة :

لا نبغى بفعالنا جزاء ولا شكوراً ، فلك بناتك وما غنمتُ من مال ، وكانوا قد وصلوا إلى حيث يأمنون ، فودعهم ورجع هو وأخوه إلى حيث يقصدُون ، وأقاموا بمكة عند البيت الحرام .

١٩

فى تلك الليلة التى أقام فيها مالك وأخوه شاس عند الغدير ، يبيتُون
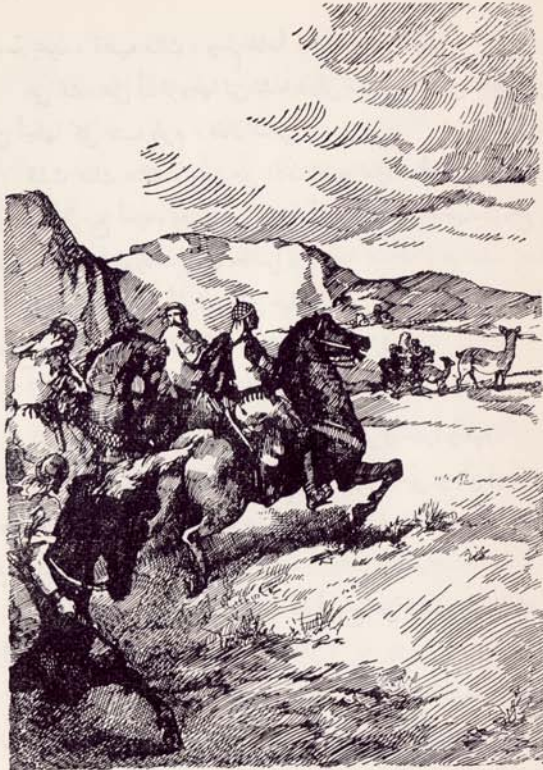
ويستريحون ، ذهب مالك ، وسلم شاساً ، ابنته عبلة ، وقال :

هى لك، على أن تزوجها ممن تشاء ، ولو كان عبداً ،حتى أدفع عنى من أجلها كل عتب ولوم ، فقال شاس :

قبلت ذلك عنك ، وهى من الآن زوج عمارة ؛ ثم أمر بإحضاره وإحضار الربيع أخيه، وفى مجلس عائلى،أبرم مالك وعمارة عهد الزواج ، فقال عروةُ بن الورد — وكان حاضراً :

لقد نصحت لك أن تبعد عن عبلة ، حتى يبعد الشر عنك ، فلم تستمع ، فارتقب بعد ذلك ويلا وشقاء ؛ فقال عمارة :

لن يكون بعد الآن شر ، فقال عروة :

ذلك ما لا أظن ، وكان ذلك بعد أن عرفوا فراق عنترة وأخيه .

ولما أصبحوا نهضوا ليستأنفوا سيرهم إلى ديارهم ، حتى وصلوا إلى غدير الظباء ،وهناك تأخر شاس ومعه عشرة فرسان ،ليقضوا حاجتهم من الصيد ثم يعودوا ، وقال لأخيه قيس :

إنى عائد من خلفكم الليلة ، بعد أن أروح عن النفس بمزاولة الصيد والقنص .

وبلغ مالكاً ما فعله أخوه شاس ، فلما ثوى فى داره ، واطمأن به مقامه أنبأ أباه كل ما كان ، وأن عنترة اختفى وذهب إلى حيث لا يعرف له مكان ، وأن شاساً تأخر للصيد فى غدير الظباء ، ومعه عشرة من الفرسان،

فضاق صدر زهير لاختفاء عنترة ، وقال :

لن يكون ما عزم شاس عليه فى زواج عبلة ، ولن تكون إلا لابن عمها عنترة .

ثم أحضر مالك بن زهير شداداً ، وأمره أن يسترد من أخيه ، ما أخذه من عنترة ، صداقاً لعبلة ، من هدايا كسرى والنعمان بن المنذر ، وأن يقطع صلته به ، ما دام مصراً على الغدر بعنترة ، وأن يفهمه أن مصير الغدر وخيم ، وأن عنترة لن يترك عبلة ما دام حياً .

ولما انتهى شاس ومن معه من الصيد، وهموا بالعودة إلى الديار ،دهمهم ميسور بن زياد الحجورى ، قادماً من ديار بنى قحطان ، فى مائة فارس، فقتلوا فرسانه ، وساقوه أسيراً ، يجرى عليه من ضروب الإهانة ما يجرى على أحقر أسير ، ولما عرف أنه ابن الملك زهير أنذره بالهلاك ، جزاء قتله أخاه شيبان وفرسانه .

ولما طالت غيبته على زهير أبيه، استشار أخاه مالكاً فى أمره ، فقال:

لا أعلم إلا ما قصصته عليك ، من تأخره للصيد ، وأخشى أن يحيق به ظلمهُ ، فيقع فى شر لا طاقة له بحمله ، فقد أعان الربيع وأخاه عمارة ، على الغدر بعنترة ، بعد أن نجاهم من الموت ، وفك رقابهم من الأسر ، إذ حملَ أباها على أن ينقض عهده ، بعد أن ذاق عنترة الأمرين، فى إحضار النوق العصفورية مهراً لابنته ، وكان ذلك سبباً فى اختفاء

عنترة وهجره إيانا ، إلى حيث لا ندرى له مكاناً .

فاستشاط زهير غضباً ، وأحضر عمارة وأنذره أنه لا مفر له من القتل ، إن لم يحضُرْ شاسٌ وعنترة ، أمر أن يقيد فى الحديد ، ويصب عليه ضروب التعذيب ، إذ كان سبباً فى فقد شاس أكبر أبنائه ، واختفاء عنترة الذائد عن الحمى ، والحافظ للذمار ، فالتفت عروة إليه وكان حاضراً ، وقال :

أول الغيث قطرٌ ثم ينهمر ، وستلقى من خيرات عبلة الشىء الكثير ، ولو استمعت لنصحى وزهدت فيها ما أصابك شىء مما تقاسيه الآن .

وأمر زهير أن تنتشر الفرسان فى كل مكان وناحية ، للبحث عن شاس وفرسانه ، ولكن ذهب بحثهم صرخة فى واد ، ونفخة فى رماد ، ولم يقفوا له على أثر .

وكان شاس فى أسره ، يلقى من ألوان التعذيب ما لا طاقة له به ، وذاع خبره فى القبيلة ، حتى بلغ رئيسها ، يزيد بن مرهوب ، فأحضر ميسوراً ، ونصحَ إليه أن يكف عن تعذيب شاس ، فهو ابنُ ملك خطير الشأن ، له قوته ، وله جنده ، وله حنانه على ولده ، ولا بد أنه الآن يبحث عنه ، ويقتفى أثره ، وهو غير ساكت حتى يجده ، أو يعلم مصيره ، وحينئذ تكون العاقبة سيئة ، فإذا ما استعنا بمليكنا عبد المدان قال :

هذا جزاء صنيعكم بأيديكم ، فذوقوا ما كنتم تصنعون ، هذا الأسير

ابن ملك له بأسه وخطره ، فكان من الواجب أن يسلم إلىَّ أمره ، لأقضى فيه بما أريد ، ثم قال :

لهذا لاأمكنك الآن من تنفيذ رأيك فيه ، فقُمْ وفكَّ وثاقه ، واجعله ضيفاً عندك ، تحت عيون حراسك فى دارك ، حتى تذهب إلى الملك عبد المدان ، وتقف على رأيه فيه .

وقال عبد المدان لميسور بن زياد :

أنفذ رأيك فيه على أقسى حال ، وأشنع مآل ، ولن يضيرك شىء من عبس وذبيان ، وفزارة وغطفان ، وإن كانوا ملء الأرض ، فإن أرادونا بسوء أغرت عليهم ، فجعلتهم تراباً .

ولما رجع ميسور أعلن بين أهله رأْىَ الملك ، وعرفت زوجته منه أنه مُصِرٌّ على قتله فى أخيه شيبان ، وكان نساء الحى يأتين إلى بيت ميسور ، ينظرن ابن الملك الأسير ، وما يلقاه من ألوان الضيم والضير ، ومبلغ ما عليه شاس من تجلُّدٍ وصَبْرْ .

٢٠

وذات يوم حضرت تلك السيدة ، التى أغاثها عنترة ، وهو ذاهب إلى البيت الحرام ، وقتل أعداءها ، وأنقذ بناتها الثلاث ، من الأسر والاعتقال

— حضرت تلك المرأة وبناتها — فى سواد من الثياب ، وجلسن إلى زوجة ميسور ، وسألنها عن هذا الأسير الذى أصبح حديث الناس ، ولما أنبأتهن نبأه قامت إلى شأن من شئون بيتها ، فانتهزت العجوز فرصة غيبتها والتفتت إليه قائلة :

أنت شاس بن زهير ؟ فقال :

نعم ، فقالت :

وأنت وإخوتك عشرة من أم واحدة ؟ فقال :

نعم ، قالت :

ومن تكون بين إخوتك ؟ فقال :

أنا أكبرهم ، وولى العهد فيهم ، قالت :

وكيف كبا حظك ، فوقعت فيما وقعت فيه ؟ فقال :

دهمنى ميسور فى مائة فارس ، وأنا مشغول بالصيد والقنص ، وليس معى من الفرسان إلا عشرة ، وقد قتلهم أجمعين ، فقالت :

الكثرة تغلب الشجاعة ، ولا تزالون مشهورين بين العرب بثبات الجنان وفصاحة اللسان ، ولكن ليس فيكم شاعر ذاع صيته كشاعر بنى قحطان ، فقال :

ومن هذا ؟ فقالت امرؤ القيس صاحب المعلقة وغيرها من بليغ القول ورائعه ، فقال :

وأين هذا من عنترة ، ذى الأيد والقوة ، والبلاغة النادرة الساحرة ؟ فقالت :

ذلك فارس أفنى حياته فى عبلة والشغف بها ، وعسى أن يكون قد تزوجها وتغير مجرى حياته بعد الحصول عليها ، فزفر زفرة حامية ، وقال :

لم يعترض سبيله إلا الذى يحدثك ، ولم يحفزنى إلى ذلك إلا الحقد والحسد ، ويبدو لى أن ما أصابنى من الهوان كان من أجل هذا الحقد والطغيان ، وقد ندمت على ما فعلت ، وعقدت العزم — إن قدرت لى النجاة — أن أنزله من نفسى منزلة الحب والاحترام ، وأن أكون له عوناً على أن تكون عبلة له ، فقالت :

لقد عرفته شهماً جريئاً ، يغيث الملهوف فى مروءة صادقة ، وعزة نفس لا تكاد تراها على أحد ، وله علينا اليد الطولى والنعمة السابغة ، وأعتقد أن لامنجاة لك إلا على يديه ، فقال :

ما جاوزت أيتها الحرة الواقع ، ومن لى به الآن ؟ فقالت :

إنه فى البيت الحرام ، وسأخبره قصتك على عجل ، وعليك أن تصدق فى توبتك ، وتخلص فى عزمك ، وتكون خير عون له على زواجه من عبلة ، فقال :

لن يكون إلا ما عزمت ، ولك عظيم شكرى إن وفيت بما سمعت .

وودعته هى وبناتها ، وعدن إلى بيتها ، وهناك أخبرت الأشعث بعلها

ما علمته من أمر شاس بن زهير ، ثم قالت :

لقد أصبحنا نستطيع أن نجزى عنترة بما فعله بنا بعض الجزاء ، فقال

وكيف ذلك ؟ فقالت :

أن تذهب إليه ، ليعجل بإنقاذ شاس من أسره ، والقتل الذى يحيق به ، وقد وعدنى شاس أن يكون على يديه زواج عنترة من عبلة ، فتنقشع عنه سحب الهموم والأحزان ، فقال :

ومن فى الناس أحق بالمعروف من عنترة ؟ وودعها وانصرف إلى البيت الحرام ، لينجز إخباره .

وكانت زوجة الأشعث لا تخشى إلا عودة ميسور قبل عنترة ، ومعه إذن من الملك عبد المدان بقتله ، ولما وقع ما كانت تخشاه ، وعلم شاس أنه هالك لا محالة ، وأن غده آخر أيامه من الحياة ، لم تذق تلك المرأة العربية طعم النوم ، وباتت تهيىء نفسها وتحكم محالها لإنقاذه ، ولم يذق شاس طعم النوم حزناً على نفسه .

وكان ميسور قد ذبح الذبائح ، فرحاً بإعدام شاس صبيحة غده ، والأخذ بثأر شيبان أخيه ، واستطاعت زوجة الأشعث أن تذهب فى منتصف الليل ، والناس نيام إلى شاس فى معتقله ، ولما فكت قيوده ، قالت له :

اتبعنى ، واسترق الخطا ، حتى أنجيك من موت قريب .

ومشى خلفها ، وكأنه ظلها ، حتى كان فى بيتها ، وهناك تبينها فإذا هى المرأة الكندية ، زوجة الأشعث ، فشكر لها عظيم مروءتها ، وكريم فعلها ، ووعدها أن يرد لها هذا المعروف أضعافاً مضاعفة ، فقالت :

إن كنت قدرت عملى هذا حق قدره ، ونويت أن تكافئنى من أجله ، فإنى لا أبغى منك لنفسى مكافأة ، فقال :

وكيف ذلك؟ فقالت :

أنقذتك من الموت ، ولا أريد جزاء له ، إلا إحقاق الحق ، وتطهير الصدور من الحسد والغل ، بتمكين عنترة من زواجه بعبلة ، فقال :

لقد بدلتنى المصائب نفساً بنفس ، وخلقاً بخلق ، فمحا الحق من قلبى آثام الحقد والهوى ، وأصبح عنترة وكل ذى مروءة مثله أحب إلىّ من نفسى ، وسأنجز أمرك ووعدك إذا عدت إلى أهلى ، وأتخذه صديقاً حميما له علىّ حق الإخاء ، وصادقُ المودة ، وسأصدف عن دعاة الهوى ، وقرناء السوء . ثم غادرت زوج الأشعث منزلها لقضاء حاجة لها ، وفى أثناء ذلك عرفت أن البحث عن شاس قائم على أشده فأسرعت فى عودتها ، وأخبرت شاساً أن ميسوراً أمر أعوانه أن يقوموا بالبحث عنه فى الأخبية ، وجعل السيدات يقمن بتفتيش النساء وخدورهن ، كما أقام الأرصاد والعيون ، على السبُل والمسالك ، حتى لا يكون له سبيل إلى الفرار ولا ينجيه تنكره فى زى النساء ؛ فأيقن شاس أنه هالك ، ولكن المرأة العربية

سرت عنه ما ألم به من يأس وجزع ، وقالت :

سأصبغ جسدك بالسواد ، حتى تصبح فى لونك الأسود الجديد ، من جملة العبيد ، وسأكل إليك رعى الغنم والجمال ، على أن تأمر بأمرى إلى أن أخرج بك من هذه الديار ، وأسلمك إلى البيداء ، تذهب منها إلى البيت الحرام ، وهناك تلقى عنترة ، فتقرئه منى السلام ، وتفهمه أنى ما خلصتك إلا من أجله ، لقاء ما قدمه لى من جميل النعم ، ودفع عنى وعن بنالى وأهلى ما كان قد حل بنا من مكروه وضيم ، فقال :

ولكِ منى السمع والطاعة ، وتنفيذ ما وصيتنى به .

ولما لاح وجه الصباح ، خرجت المرأة ومعها عبيدها ، وفيهم شاس فى لونه الجديد ، يسوقون الأنعام والأغنام ، إلى المرعى فى البيداء ، وهى بينهم آمرة ناهية ، حتى كانوا فى ساحات البيداء الفسيحة ، وبعدوا عن هذه الأحياء المخيفة ، وهناك ودعته إلى البيت الحرام ، ومعه بعض ما يحتاج إليه من شراب وطعام .

(نهاية الجزء الثانى)

عنترة بن شدّاد